ديوان
أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

(المتوفى نحو ٤٦٠ هـ)

حققه وشرحه واستدرك فائته
الدكتور
محمد رضوان الداية

يا رب قلب بجناح هفت

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية



ديوان

أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

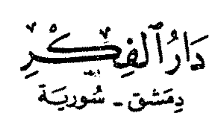
ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

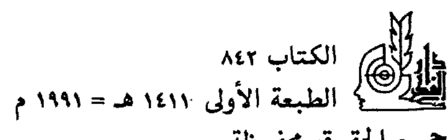
(المتوفى نحو ٤٦٠ هـ)

حققه وشرحه واستدرك فائته
الدكتور
محمد رضوان الداية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان


دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٨٤٢

الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)

برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

في التّراث الأندلسي الشعري الباقي ديوان أبي إسحاق الإلبيري أحد أعلام القرن الهجري الخامس(☆) . ويُبْرزُ هذا الديوان لوناً من الشعر كان له شأن في هذه المدّة وهو الدّعوة إلى الزُّهد في ملذّات الدُّنيا التي جذبت الأفئدة وغيَّرت السلوك الإنساني ، ثمّ إنّ الشاعر شارك في الدَّعوة إلى الإصلاح السِّياسي وإلى الجهاد في العَدُوّ . لقد كان رجل علمٍ وعَمل ، ورجل قول وفِعل . ونصب من نفسِه مثالاً أدار حوله كثيراً من أشعاره .

ويعدّ شعر الإلبيري وسلوكه الوجه الآخر للحياة في الأندلس في هذه المُدَّة : فلم تكن حياة النّاس كلها حياة ترف وبذخ وانسياق وراء ملذّات الجسَد وأهوائه ؛ لقد وُجدت الأصوات التي تُنادي بالاعتدال ، وتدعو إلى معادلة كِفَّة الحياة ، ووجدت

(☆) ترجمة أبي إسحاق الإلبيري في : التكملة (لابن الأبّار ١ : ١٣٦ ، وبغية الملتمس ٢١٠ (رقم التّرجمة ٥٢٠) ، وترتيب المدارك للقاضي عياض : ٨٢٨ ، والمُغرب لابن سعيد : ٢ : ١٣٢ ، والروض المعطار (إلبيرة) ،

ومواضع متفرقة من : الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ، ونفح الطيب للمقرّي ، وأعمال الأعلام (أخبار دولة بني زيري) .

ويُنظر ما في فهرسة ابن عطية ، وفهرسة ابن خير ، وبرنامج الوادي آشي ، وأخبار وتراجم أندلسية : ١٣٥ ،

وممّا فُقد من تراجمه في الكتب المطبوعة ما في : صلة الصّلة لابن الزبير (أخلّ به القسم المطبوع) ، وسقطت ترجمته من نسخة الإحاطة المطبوعة . وغفل عنه صاحب الذّخيرة .

واهتم بالإلبيري مؤرخو الأدب مثل بلانثيا في : تاريخ الفكر الأندلسي و إ . غ . غومث في مقدمته لطبعة الديوان ، والدكتور إحسان عباس في عصر الطوائف والمرابطين ، والدكتور عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ، والزركلي في الأعلام .

وأجريت ذكره في كتابي : بحوث الأدب الأندلسي ، والأدب العربي في الأندلس والمغرب ، وخصصته بدراسة مستقلة (أبو إسحاق الإلبيري : زاهد الأندلس الثائر) .

الأمثلة الحيّة من أهل العِلم والفقه ، ومن المتطوعين للجهاد والمُجاهدة ، ومن الّذين نبذوا الدُّنيا ـ كما كانت حالُها آنذاك ـ وراء ظهورهم ونظروا إلى الآخرة ، وسَعَوْا لها سَعْيَها .

ومن هنا اهتممت بديوان الإلبيري وأعدتُ النَّظر فيه ، وقدَّمته إلى قراء التراث العربي ، ومحبّي التراث الأندلسي والمغربي خاصة .

والحمد لله ربِّ العالمين

دوما ـ دمشق الشام في محرّم الحرام ١٤١١
آب ١٩٩٠

أ . د محمد رضوان الدّاية

حياة الشاعر وعصره

الشاعر صاحب الديوان هو : أبو إسحاق إبراهيم بن مَسعو بن سَعْد التُّجيبي واشْتهر بالنّسبة إلى مدينة إلبيرة ، فقيل فيه : أبو إسحاق الإلب ي ونَسَبته كُتب التراجم إلى كلّ من : إلبيرة ، وغَرناطة ، وحِصن العُقاب . و الأمر أنّ أبا إسحاق من أَهل حصن العقاب ؛ ويقال فيه رِباط العُقاب فيه وُلِدَ ونشأ ثم قصد إلى المدينة الكبيرة المجاورة ، حاضِرَة الكُورة ، أَعني (إلبيرة) فتلقّى مزيداً من علومه وثقافته فيها ، واستقرّ فيها إلى أن أُخليت المدينة وانتقل أهلُها إلى مدينة غرناطة . فهو إذن من العُقاب (الحِصن أَو الرّباط) ثم هو نزيل إلبيرة ؛ وساكنُ غَرْناطة ؛ ومن هنا قولُ الشاعر في قصيدته الطّنّانة في التّحريض على ابن النّغريلة ورهطه : (القصيدة [٢٥] من هذا الديوان)

وإنّي احتَلَلْتُ بغرناطةٍ	فكنت أراهم بها عابثينْ
وقد قسموها وأعمالَها	فمنهم بكلِّ مكان لعينْ
فصارتْ حوائجنا عنده	ونحنُ على بابهِ قائِمونْ !

فقوله : « احتللْتُ بِغَرناطة » أي نزلتُ بها ، وسكنتُ ، واتّخذتُها دارَ إقامة .

ونستخرج من أَخبار أبي إسحاق ، وهي قليلة ، أنّه وُلد في حصن العقاب ، ونشأ فيها نشأته الأولى . ثم خَرج إلى إلْبِيْرَة ، وما ندري أَخَرجَ في طلب العلم في فتوته المبكّرة ليكون في رعاية بعض أقاربه في إلبيرة أم كان خروجه مع أهله إليها في نقلة شاملة ، لسببٍ من الأَسباب . وفي هذه الحاضرة استقرّ ، واستزاد من علومه ولقي الشُّيوخ وروى عنهم وتبحّر في العُلوم الشّرعيّة : واشتهر بالفقه والقراءات القرآنيّة .

وكانت نُقلته إلى غَرناطة فرصة أخرى للقاء العُلماء ، ولاتخـاذ مكانـةٍ بين الفُقَهـاء ، وطلبـة العلم . وقـد عرَفنـا من شيوخـه : محمّـد بن عبـد الله بن أبي زَمَنِين المتوفّى سنـة ٣٩٩ ؛ وكان من رؤوس فقهاء زمانه .

وفي نَسَبِ أبي إسحـاق الإلبيري أنّـه تُجيبي ، من اليَمن من (تُجيب) . وقـد ذكر ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أنّ ديار تجيب بالأندلس في سَرَقُسْطـة ودَرَوْقَـة وقلعـة أيُّوب . يعني : غالِبيّتهم ومُعظم جماعتهم . ووجَـدْتُ في المنسوبين إلى إلبيرة مَنْ هو من تُجيب . فكأَنّ جماعة قليلة من هـذه القبيلـة سكنت كُورة إلبيرة ، أو نزحت إليهـا من الشمال (ينظر جمهرة ابن حزم ٤٣٠ ، وصلة الصّلة : ٤٦) .

ولد أبو إسحاق نحو سنة ٣٧٥ ، وهو من تلاميذ ابن أبي زمنين المتوفّى سنـة ٣٩٩ ، وكان في هذه المدّة في جملة الفقهاء (الشبّان) يروي عن العلمـاء ، ويـأخـذ طريقـه إلى ممارسة الإقراء والتدريس والرواية والتّعليم .

ولئن عرفنا من تلامذة أبي إسحاق ـ ومريديـه ـ عـدداً من الأسماء لقـد غـاب عنّـا أسماء شيوخه إلاّ من ورد ذكره عَرَضـاً . ولكنـه ـ لاشـكّ ـ لقي من العلمـاء الكبـار في عصرٍ ناهضٍ من الناحية العلمية والحضاريّـة ، وفي ظلال الحركـة الفكريـة العظيمـة التي سعى لهـا بنـو أميـة عـامـة ؛ وعبـد الرحمن النـاصر لـدين الله (ت ٣٥٠) وابنـه الحكم المستنصر (ت ٣٦٨) خاصّة .

وفي هذه المُدّة التي عاصرهـا أبو إسحـاق الإلبيري ظهرت شخصيـات كبيرة مؤثّرة في الحياة الفكرية : العلمية والأدبيّة والفنية في الأندلس مثل ابن حزم الفقيه الظّـاهري المعروف (ت ٤٥٦) وابن زيدون (ت ٤٦١) وابن شُهيد (ت ٤٢٦ هـ) .

وظاهر أن أبا إسحاق ، انتقل إلى إلبيرة ، فـاستوطنهـا إلى أن أدركهـا الخراب ، ثم سكن غرناطة .

وفي إلبيرة تكوّنت شخصية أبي إسحاق ، وظهر بين أصحابه وأقرانه ونشر فيهم أوائل شعره ؛ وصار معروفاً لديهم بالشعر كمعرفتهم إياه فقيهاً متميّزاً بينهم . ومن يَقرأ قصيدته في رثاء إلبيرة يتنبّه إلى درجة تعلقه بهذه المدينة ومعرفته بها ، وارتباطه نفسياً بذكرياتها وآثارها وأهلها . وفي هذه القصيدة (برقم [٢٠] في الديوان) يقول :

وكم بُلغت فيها الأماني وقُضِّيتْ لِصَبٍّ لبانـاتٌ بها ومـآربُ
لَعَهْدي بها مبيضّة الليل فاغتدتْ وأيّامُها قد سَوّدتها النّوائبُ

وينقضي زمانٌ على إقامته في غرناطة حتى نعرف أنّه عمل كاتباً لدى القاضي أبي الْحَسن عليّ بن توبة . وكان هذا القاضي قد تولى العمل لباديس بن حَبُّوس الزيري صاحب غرناطة إثر توليه السُّلطة بعد أبيه سنة ٤٢٩ . ونعرف أيضاً أن أبا إسحاق رافق ابن توبة في رحلة سفارية إلى مدينة الْمَرِيّة في تلك السَّنة نفسها ، قصد فيها إلى بلاط زُهَير العامِريّ ، ولقي - مع ابن توبة - أيضاً كاتِبَ زهير : أَبا جَعفر أحمد بن عَبَّاس بن أبي زكريّا الأَنصاري .

طالت مُدّة ولاية ابن توبة على القضاء ، فقد اشتهر منبر مسجد غرناطة الذي أشرف على صنعته سنة ٤٤٧ ؛ وإليه تُنسب قنطرة القاضي التي أقيمت على نهر حَدَرُّو الذي يقطع مدينة غرناطة ، ويخرج عنها . « وما تزال أطلال هذه القنطرة باقية إلى اليوم وتحمل الاسم نفسه » . وكان ابن توبة حَيّاً سنة ٤٥٠ .

وكانت علاقة الإلبيري بهذا القاضي وثيقة ، وكان به مُعْجَباً . ولكي نُنصف أَبا إسحاق الإلبيري نذكر ما وُصِفَ به ابن توبة في تراجمه ، فقد قيل فيه إنه كان من قُضاة العَدْل ، ومن العُلَماء الجِلّة الفُقهاء . ومن هنا ، ومع أسباب الإلف والْمَودّة ، مدح أَبو إسحاق هذا القاضي ، وأثنى عليه ، ودافع عنه . وما قاله فيه يعدّ نوعاً من الالتزام بمواقفه على جهة العُموم .

ولا نعرِفُ لأَبي إسحاق مَدْحاً في رجلٍ آخر في ديوانه ، أو أخباره .

وفي هذه الْمُدّة ـ في أثناء إقامته بغرناطة ـ كَثُر أصحابه ، وتلامذتـه ، وقرّاء شعره والمستمعون إليه . وكان بعض شعره يُنشـد ويُحْتَفل بـه ، كما كان شعره كلـه ممّـا يتـابعـه النّاس ويعجبون به .

ونقرأ في فهرسـة ابن خير (٤١٨) أنـه يروي قصيـدة بـديعـة في الـزُّهـد بـائيّـة لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمـه الله ، قـال : « حـدّثني بهـا الشيخ الفقيـه أبو القـاسم خلف بن هشـام بن حسّـان الأموي الأشبـوني رحمـه الله ، قراءة منّي عليـه بمدينة شِلب حرسها الله قـال : حـدّثني بهـا الأستـاذ أبو بكر محمـد بن حسين بن عبـادة البطليوسي رحمه الله قراءة عليه ، قال : قرأتُها على الشيخ الزاهد أبي عبـد الله محمـد بن خميس اليابري ، قال : قرأتُها على ابن أُخت قائلها ، عن خاله رحمه الله » .

وعبارة « قصيدة بديعة في الزهد بـائيـة » صَوابُهـا : تـائيـة . وتكون الإشـارة إلى القصيدة الأُولى في الدّيوان . وقد نبّه إلى ذلك ابن الأبار في التكملة (٣٠٢/١) وسماهـا : تائية .

وفي أسماء أصحاب أبي إسحاق ، ومريـديـه ، أبو محمـد عبـد الواحـد بن عيسى بن سليمان الهمداني ، وكان فقيهاً جليلاً ، حافظـاً للفروع ، حـاز ريـاسـة الفقـه والشورى ببلـده (غرنـاطـة) وبـه تفقـه أكثر أهلـه (أي أهل بلـده) واشتهر ذكره وعـلا صيتـه (ت ٥٠٤) .

وفيهم أبو حفص عمر بن خلف بن محمد الْهَمْـداني المعروف بـابن قبلال (ت ٥٠٢) وكان فقيهاً زاهداً فاضلاً مُجابَ الدَّعوة ؛ ولي الصلاة بجامع غرناطة إلى أن مات بها .

وفيهم حفيده الذي سبقت الإشارة إليه .

وفيهم مِمّن روى عنـه قراءةً معتمـدة من القراءات القرآنيـة (برنـامـج الـوادي آشي : ١٨٣) أبو محمد بن العسّال الطُّليطلي ، ذكره ابن الأبار في ترجمة أبي إسحاق وقال فيـه : « وسلـك مسلكـه أبو محمـد بن العسّـال الطليطلي ؛ وكانـا فرسي رهـان في ذلـك

الزمـان صـلاحـاً وعبـادةً » وكأنـه عنى السَّير على منهجـه في الـزُّهـد والعبـادة والمسلـك الاجتماعي أيضاً .

وقـد اشترك ابن العسّـال مـع أبي إسحـاق في التّنبيـه على الْمَشكـلات الاجتماعيّـة الطارئة ، المسيطرة ، التي أدّت إلى التقاعس والخمول والتّضييع ، وفي الـدّعوة إلى الجهـاد ومحاربة العدوّ بلا هوادة ، وفي الدعوة إلى رفع الظلم عن النـاس ، وفي الـدَّعوة العـارمـة إلى الزُّهد ؛ وإنما يقصد الشاعر الفقيه الزاهـد أوّلاً إلى تلطيف سلوك النـاس الْمُنـدفعين إلى ملاذ الحياة وشواغلها وبهرجها والإشراف عليهـا في وقتٍ يتطلّب التقشّف ، والجهـاد والْمُجاهَدة ، والجِدّ .

أدرك الإلبيري من العُهود السّياسية ثلاثـة ، وفي كل عهـد أمراء ورؤسـاء وظروف مختلفة :

ـ فقد أدرك دولة العامريّين بالأندلس ؛ أعني مدّة تسلّط محمد بن أبي عامر المتلقّب بالحاجب المنصور ، ومدّة ابْنَيه بعده .

ـ وأدرك مدّة الفتنة حين نهض بنو أميّة لاسترداد ماسلبهم إيـاه ابنُ عـامر وأولاده من السُّلطة والقيام بشؤون النـاس . وهي فترة امتـدت من سنـة ٤٠٠ إلى ٤٢٢ ، وكانت مضطربة ، ظهرت معهـا أوليـات دول الطوائف التي اقتسمت الجسـد الأنـدلسي الأموي الواحد . وكان ابنُ أبي عامر في مـدّتـه الطويلـة قـد أضعف العصبيـة الأمويّـة خـاصـة والعصبية العربية عامّة . وكانت ثمرة ذلك مُرّة .

ـ وعاصَر مُدّة دول الطَّوائف ؛ ومات في أثنائها نحو سنة ٤٦٠ قبل انهيـار الأنـدلس الكبير بسقوط طُلَيْطِلَة سنة ٤٧٨ هـ .

١ ـ حكم المنصـور ابن أبي عـامر نحـواً من ٢٥ سنـة ، كان الحـاجب (والحـاجب في الأندلس بمنزلة الوزير في المشرق) وكان الحـاكم الفعلي ؛ وكان الخليفـة آنـذاك هشـام بن

الحكم ولم يكن له غير الرّسم من الخطابة والنّقد ، والطاعة الاسمية . وحكم بعد المنصور ابنه عبد الملك (تلقّب بالمظفر) وكان في حكمة أبيه ودهائه (٣٩٢ - ٣٩٩) ثم جاء ابن المنصور الآخر : عبد الرحمن الملقب بِشَنْجُوْل (كان حفيد شانجُه ملك نبارّة) وكان أحمق أهوج ، حَمَل الخليفة الأموي على أن يجعل الخلافة فيه بعده .

٢ - تطورت الأحداث وحاول بنو أُميّة أن يعيدوا الملك فيهم على الحقيقة ولكنهم أخفقوا واحداً بعد واحد لظروف كثيرة منها غياب العصبية العربية التي كانت حماية لهم ، وتدخُّل البربر الذين وفدوا من إفريقية على الأندلس أيام المنصور العامري ، ثم تَدخّلوا في ترجيح كفة بعض الطامحين إلى الخلافة أو السُّلطة إلى عوامل أخر يطول الوقوف عندها .

وكانت مُدّة الفتنة هذه نكدة صعبة عسيرة لاقى منها النّاس شرّاً مُستطيراً . خربت معها الزّهراء والزّاهرة وتشوّهت معالم قرطبة ، وتغيّرت الموازين السياسية وتبدّلت قيمٌ اجتماعية كثيرة ، وانهمك النّاس في أمور كانوا لا يُوغلون فيها ، وشغلتهم الدُّنيا : بين توفير أدنى المطالب في هذه الظروف ، والانغماس فيها عند القادرين وعند أثرياء المرحلة !

٣ - وجلا عصرُ الفِتنة عن سقوط دولة بني أُمية ذات العزّ العظيم والمجد الغابر ، وظهور عدد كبير من الدويلات - تكبُر وتصغُر - عُرِفت في التاريخ باسم دول الفِرَق أو دول الطّوائف .

وكانت هذه المدّة من أشدّ عصور الأندلس غرابةً ؛ فقد :

- ضَعُفت فيها الأُمّة عن مواجهة عدوّها ، وصارت تتهاوى عند رغباته وتنحني لمطالبه ؛
- وانتثر عقد الدولة الواحدة ، دولة الأمويّين ، وصارت البلاد دويلات هزيلة تختلف

على العظائم وعلى الصَّغائر ، وتمسّح بأعتاب العدوّ لِيُزْهِقَ بعضهم بعضاً ، وليكون هذا في مصلحة ذلك العدو ؛

- وأرهق ملوك الطوائف الناس لتتحقّق لهم رغباتُهم وأهواؤهم من جهة ، وليقدّموا ثمن سكوت ملك قشتالة وغيره - من ملوك الدول الشمالية المعادية - من جهة أُخرى ؛
- وانغمس أولئك الحكّام - إلا القلة القليلة - في حياة بذخ وترف لا تُطيقها الرعية ولا تسمحُ بها ظروف البلاد والعباد ؛
- وأضاع معظم السياسيّين والعسكريّين رَسْمَ الجِهاد ، وذهبت أيّامُ العِزّ ، وصارت كلمة الأندلسيّين هي السُّفلى ، واستكلب العدوّ الذي كان قبل سنين قليلة مُستخذياً ضعيفاً ؛

- وبدأ التراجع العربي الإسلامي عن أرض الأندلس . ويكفي أن نذكر سقوط طُلَيطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة ٤٧٨ ؛
- وأسْهَم الْحُكّام الْجُدد - وأكثرهم لا يصلح لسياسة ولا لرياسة - في إفساد الذوق العام ، وفي غلبة الأهواء الشخصية ، والركون إلى النفاق السياسي ، والانغماس في الملذّات الآنيّة من مثل :

- الرَّغبة العارمة في جمع المال وحيازة العقار ؛
- والتأنق الفائق في المأكل والمشرب والملبس والمسكن ؛
- والانغماس في ملذات الجسَد .

وقد بَيّن ابن حَزْم معاصر أبي إسحاق الإلبيري مفاسد هذه الْمُدّة ، ومفاسد حُكّامها وأخطاءهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية (رسائل ابن حزم ٣٢/٣ - ٣٣) .

كان زاوي بن زيري زعيماً من زعماء صنهاجة ؛ وجَدّت معه ظروفٌ يطول شرحُها دعته إلى مغادرة إفريقية والانحياز إلى جانب المنصور بن أبي عامر في الأندلس . وبعد فتنة شنجول بن المنصور واضطراب الأمور في الأندلس خرج زاوي عن قرطبة ؛ وسمع

إلى فئـة من كبـار أهل إلبيرة للسكنى بفئتـه معهم وحمـايـة البلـد من اضطرام الفتنـة . وهكذا نزل زاوي إلبيرة وصار أميراً عليها .

وما لبث أن اختار موقع غرناطـة وكانت قريـة صغيرة لتكون الحـاضرة ، فموقعها مكين ، ويسهل الدفـاع عنـه . وغـادر أهل إلبيرة مـدينتهم إلى غرنـاطـة فعمرت هـذه وخربت تلك . وكان هذا سنة ٤٠١ .

وفي خبر آخر يترك زاوي الأندلس ويغادر إلى إفريقيـة ، ويحلّ محلّـه في ريـاسـة غرناطة وما صار تحت نظره من المنطقة : حَبُّوس بن ماكْسِن . وكان هذا سنة ٤١٦ .

واستمر حبوس إلى سنة ٤٢٩ حيث تولى الحكم : بـاديس بن حَبُّوس الـذي استمر على ولايته حتى ٤٦٩ ؛ ثم تولى حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس . وعبد الله هو : الأمير عبد الله الذي أذعن للمرابطين طوعـاً . ولـه كتـاب التّبيـان : وفيـه تسجيل لأحـداث زمانه ـ كما رآها وارتآها ـ وفيه ملامح عن شخصه أيضاً .

وفي زمن دولة باديس تولّى أبو إسحـاق الإلبيري الكتـابـة للقـاضي أبي الحسن بن توبة مدّة غير قليلة (لا نعرف كم هي تحديـداً) . وبـاديس هو المعنيّ بقصيـدتـه الشهيرة التي على النون : (القصيدة ذات الرقم [٢٥] من الديوان)

ألا قُـل لصنهـاجـةٍ أَجْمَعِين   بـدور النـديّ وأُسـد العرين

والتي أسهمت إسهاماً قوياً في الثّورة على الوزير المتسلّط المتآمر على الأمير نفسـه ، وعلى أسرته ، وعلى أهل غرناطة : يوسف بن إسماعيل بن النغريلة .

ولقصيـدة أبي إسحـاق قصّـة ؛ وهي قصّـةٌ مـوصـولـةٌ بيـوسف بن إسماعيـل بن النغريلة . ولهذا الوزير اليَهوديّ خبَرٌ يطول في دولة باديس بن حَبُّوس الذي أسلم إليه قياد دولته ، حتى ظلم وطغى ، ودعا الناس إلى الثورة عليه والإطاحة به !

كان لحَبوس كاتب بارع يُعرف بأَبي العَبّاس . وكان لهذا الكاتب ـ الـذي لـه مهمّـة

الوزير وصلاحيته ـ كاتب آخر يساعده ويقوم بالشُّؤون الديوانيّة التي يكلفه بها أبو العَبّاس هو إسماعيل بن النغريلة اليهودي . فلما توفّي أبو العَبّاس أقام حَبوس أحد أولاده مكانه ، وكان فتىً غِرّاً قليل المتابعة للأعمال الإدارية ... فمكّن ابن النغريلة لنفسِه ، وطرح الفتى الكاتب وراءه ، وصار هو في مكانة الكاتب الرئيسي (الوزير الذي يدير شؤون الدولة) .

وذكر الأمير عبد الله الأسباب التي دعت جدّه باديس إلى الاستنامة إلى ابن النغريلة ، وقال إنها تتلخّص في أمور : (التبيان : ٣١ ـ ٣٢)

- فقد كان كيّساً يحسن فن المُداراة للناس ممّا يُناسب ذلك الزّمان ؛
- وهو يهوديّ لا تطمح نفسه إلى الولاية والانقضاض على صاحب الدولة ؛
- وهو ليس من الأندلسيّين فيخشى باديس منه أن يتفق مع سلطان من ملوك الطوائف ؛
- وهو قادر على الجباية ، وخصوصاً من بني جلدته .

وهذه الأسباب ـ وإن كانت تسوّغ صنيع باديس بمعايير سياسيّة خاصّة به ـ هي أسباب واهية ؛ وتجرّع الناس تسلط ابن النغريلة وتمكينه لقومه تدريجاً بصعوبة بالغة .

فلما مات خلفه ابن له يدعى يوسف . وكان يوسف أقلّ من أبيه في الدهاء والمكر والقُدرة على المُداراة . فقد وُصف الأب بالبراعة في الوصول إلى ما يريد والكياسة في التعامل مع النّاس ـ ولو ظاهراً ـ ولكنه من جهة ثانية مكّن لليهود في المناصب المالية والإدارية ، وجعل لهم صولة وجولة . وكان لابن حزم مناقشة معه ، ولم يثبت ابن النغريلة (الأب) عندها ؛ وانكشف عَواره .

أمّا يوسف بن إسماعيل فكان إلى طغيانه ، وتأريشه ، وتآمره على بيت باديس مُظاهراً بحاله ، مُتورّطاً في الخوض في مسائل الإسلام ؛ وله كتابٌ تورَّط فيه يوسف في

الكلام في مسائل إسلامية ، تصدّى له عدد من العلماء فردّوا عليه وبيّنوا ضعفه وتهافته ؛ وفيهم الإمام ابن حزم في كتابه المطبوع : **الردّ على ابن النغريلة** (تنظر الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور إحسان عباس في أول الجزء الثالث من مجموع رسائل ابن حزم) . وقد كشف ابن حزم عن جهلِ ابن النّغريلة وتطاوله وطُغيانه .

وتابع يُوسف دسائس أبيه السّرّية ، ولكنّه ـ لِبَطَرٍ فيه وأشر ـ تورّط في قَتل بُلُقّين بن باديس وألصق التهمة بعدد من رجال الحاشية ؛ (قتله مسموماً سنة ٤٥٦) . وتورط أيضاً في مؤامرة عقدها مع المعتصم بن صُمادح صاحب الْمَرِيّة سنة ٤٥٩ ، وكادت المؤامرة تتمّ لولا عيون خصوم يوسف بن النغريلة ـ وهم كُثر ـ وهياج الشعب ضدّه ؛ وكان على رأس الناقمين على تسلط هذا الوزير السيّء : الفقيه الأديب أبو إسحاق الإلبيري ، وفعلت قصيدته في الناس فعل النار في الهشيم وردّدتها الألسنة ؛ قال لسان الدين بن الخطيب (أعمال الأعلام ـ قسم الأندلس : ٢٣١) : وحُفظت القصيدة المنسوبة إلى المولى العابد أبي إسحاق الإلبيري رضي الله عنه التي يقول فيها مخاطباً باديس ومحرّضاً على اليهودي (ورواية الشعر هنا له) :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقةٍ مشفق ... يعدّ النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيّدكم زلّةً ... تقرّ بها أعينُ الشامتين

وانتهى أمر يوسف بأن قتلته العامة في ثورتها العارمة ، وتخلص الناس من مكايده ، وفساده ، وتخريبه . وكان ذلك سنة ٤٥٩ (قال لسان الدين : وقيل سنة ٤٦٥) .

وفي ديوان الإلبيري قطعة أنشدها في حصن العُقاب ؛ يقول فيها :

ألفْت العُقاب حذار العقاب ... وعفتُ الموارد خوف الذّئاب

ويرجح أنه قالها في المدّة التي نفي فيها عن إلبيرة ؛ نفاه الأمير باديس بتحريض من وزيره ابن النغريلة . وواضح أن يوسف بن النغريلة أزعجه من الشيخ الوقور ذي الكلمة المسموعة من الناس أن يحرّض عليه ، ويكشف عواره ، ويدعو الناس إلى الثورة عليه .

وليس لدينا تاريخ معروف لنفي أبي إسحاق ، وأرجح أن يكون بعد وفاة القاضي ابن توبة الذي كان حماية له ولغيره من الفقهاء المتنوّرين . ويَقْوى عندي أن يكون هذا بعد مقتل بلقّين على يد النّغرالي حين اضطرب وساء ظنه بكل أحد يمكن أن يكون من المعارضة المسموعة .

ولا تعيّن كتب التراجم سنة وفاته ، ولكنْ وقع تقديرها في حدود سنة ٤٦ ، قال ابن الأبار في التكملة (١ : ١٣٧) : توفي في نحو الستّين وأربع مئة .

لقد كان أبو إسحاق الإلبيري فقيهاً عالماً ، حذّر وأنْذَر ودعا الناس إلى نقد الذات والعودة إلى طريق الله تعالى بعيداً عن الإسراف في ملاذ الدُّنيا الزائلة ، ودعا إلى محاربة العدو والوقوف صفّاً واحداً ؛ وكان تركيزه على ذم الدنيا مناسباً للأحوال الاجتماعية في زمان اضطربت المعايير فيه ؛ وانغمس الناس في دنياهم : من كان ذا مال فإنه يطلب المزيد ويُسرف في الشهوات ، ومن قصّرت حاله جعل همه في دنيا يصيبها على أية حال . ومن هنا كان زُهد الإلبيري وتزهيده الناس وذمه للدنيا هو محاولة صارخة لتعديل الكفة المرجوحة مع الأُخرى الراجحة : محاولة للإصلاح الاجتماعي انطلاقاً من النفس ، من داخل الإنسان ووجدانه .

لقد خفيت هذه المقاصد والمعاني عن المستشرق دوزي الذي ناصب الإلبيري العداء وقال فيه كلاماً عجيباً هو إلى الذّم أقرب منه إلى أي درس وبحث .

وخفيت أيضاً عن المستشرق إميليو غارثية غومز ناشر الطبعة الأولى من الديوان . وكان قد قدم للديوان بدراسة ، ترجمها الدكتور : الطاهر أحمد مكي في كتاب (مع

شعراء الأندلس والمتنبي) . وليس من الإنصاف أن يجري الأستاذ غومز مقارنة بين الإلبيري وابن حزم - وهما متعاصران - فإن لكل واحد منهما أُفقاً مستقلاً . يقول غومز في الإلبيري (ص ١١٧ - ١١٨ من الترجمة) :

« ... هكذا تقدّم لنا هذه القصائد صورة فقيه إسباني - يريد : أندلسي - لآخرين كثيرين لعبوا دوراً مهمّاً في التاريخ الثقافي والسياسي للأندلس الإسلامي كانوا أصحاب الأمر والنّهي خلال الإمارة الأموية ، يلاحقون الذين يحاولون جلب العلوم الشرقية ويضعون أمامهم العراقيل . وكانوا هم الذين أوقفوا تقدّم العلوم في ظل الخلافة وهي في أوج ازدهارها ، وكانوا دمىً يلعب بها المنصور ويحركها فحطموا مكتبة الحكم الثاني الهائلة ، وكانوا أعداء ألدّاء لحضارة ملوك الطوائف البهيجة المصقولة المتحرّرة ... وكانوا هم الذين حاولوا فيما بعد أن يطوّقوا الازدهار الفلسفي العظيم ذا الطابع الهيليني على أيام الموحّدين ... » إلى آخر ما قال ممّا لا يصح تعميمه على هذه الصّورة ، ولا يصح تطبيقه على أبي إسحاق الإلبيري !

على أنه يقول في آخر كلامه (ص ١١٨) :

إن أبا إسحاق الإلبيري ، في نطاق ثقافته ، ومع جفاف قلبه الْمُدَمّر وشموخه بالعفّة وعناده الذي يُخفي هوّات عديدة (كذا وردت) ومنطقه الثرثار المليء بالقوّة ، وبُغضه للشعراء ، وبقصيدته التي تشتعل توهجاً ضدّ اليهود ، والتي استطاع بها أن يلهب غرناطة ليس بأقل من أي واحد منهم وإنه لجدير بأن يحتلّ مكانه في الصف الأول من الشعراء » .

وهذا - وإن أدّى إلى الاعتراف بأبي إسحاق شاعراً متقدّماً - يدلّ على ضعفٍ في فهم مسلك الشاعر وموقفه ، وعلى منهج مضطرب في رؤية أحداث الأندلس ومجرياتها ، وفيه متابعة قائمة على الاستهواء لآراء دوزي ، وفيه ميلٌ شديد وازورار عن الفقهاء والزهاد والعُبّاد ؛ وهو ميل يُفسد الرأي ويذهب بالموضوعيّة .

شعر الفقيه الزاهد
أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود
الألبيري رضي الله عنه

صورة غلاف الديوان

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه الله عليه

تفت فؤادك الأيام فتا وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت أريد أنتا
أراك تحب عرسا ذات خدر أبت طلاقها الأكياس بتا
تنام الدهر ويحك في غطيط بها حتى إذا مت انتبهتا
فكم ذا أنت مخدوع وحتى متى لا ترعوي عنها وحتى
أبا بكر دعوتك لو أجبتا إلى ما فيه حظك إن عقلتا
إلى علم تكون به إماما مطاعا إن نهيت وإن أمرتا
ويجلو ما بعينك من عشاها ويهديك السبيل إذا ضللتا
وتحمل منه في ناديك تاجا ويكسوك الجمال إذا اغتربتا
ينالك نفعه ما دمت حيا ويبقى ذخره لك إن ذهبتا
هو العضب المهند ليس ينبو تصيب به مقاتل من ضربتا
وكنز لا تخاف عليه لصا خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفا شددتا
فلو قد ذقت من حلواه طعما لآثرت التعلم واجتهدتا

صورة بداية الديوان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي

حققه وشرحه واستدرك فائته

الدكتور محمد رضوان الداية

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله

[١]

قال الفقيهُ الزَّاهدُ أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ مَسعُود الإلبيريّ ، رحمة الله عليه :

[في القصيدة خطاب وعتاب ومحاورة مع مَنْ دعاه (أبا بكر) . وكان هذا الرجل قد ذكر بعض معايب الشاعر ، وبلغه ماقال . وقد جعل الشاعر هذا الُمنطلق فرصةً لبسط آرائه في العلم والتقوى والتوبة ونبذ الدنيا ؛ وإشارةً إلى مقالة أبي بكر فيه ، وتجاوزاً لها في الوقت نفسه . واختلط الحديث بين توجيه أبي بكر هذا والحديث عن النفس من منطلق لوم الذات (من التحرّج المستمرّ) وتضخيم الهفوات ، وإعلان الخضوع المطلق لله تعالى .

بدأ الشاعر القصيدة بالكلام على غفلة الإنسان عما تصنعه آلة الزمن في بني آدم (١ ـ ٥) ودعا أبا بكر ـ والخطاب عامّ ـ إلى العلم النافع (٦ ـ ١٠) وبيّن منزلة العلم وحلاوته (١١ ـ ١٩) وأن الإنسان مسؤول عن علمه والعمل به وعن جهله لوجهل (٢٠ ـ ٢٧) وسفّه من يفضل المال ـ وما يلحق به ـ على العِلم (٢٨ ـ ٤٤) وهوّن شأن الدنيا (٤٥ ـ ٥٤) فهي عَرَض فانٍ ، ودعا إلى الجدّ ـ دون الهزل ـ وإلى التّوبة والخضوع لله تعالى (٥٥ ـ ٦٠) وتعجيل التوبة (٦١ ـ ٦٥) وجعل نفسه مثالاً يتحدث عنه (٦٦ ـ ٦٩) وعاد إلى خطاب أبي بكر ، وحَذّر

من الإخلاد إلى الدنيا ومن نسيان الآخرة (٧٠ ـ ٨١) وإلى تذكر يوم الحساب (٨٢ ـ ٨٦) .

وخرج إلى اعتراف عام بالذنوب وسرد لمعايب الإنسان المقصّر (٩٧ ـ ٩٩) وإلى نصائح عامة أخلاقية ، في الحذر من رفاق السّوء وأهل الجهل : ودعا إلى إباء الضيم ، وإلى الضرب في الأرض الواسعة سعيا وراء ذلك] .

[من الوافر]

١ تَفُتُّ فؤادَكَ الأيّامُ فَتّا وتَنْحِتُ جِسمَكَ السّاعاتُ نَحتا

٢ وتَدْعُوكَ الْمَنُونُ دُعاءَ صِدقٍ: ألا يا صاحِ: أنتَ أُريدُ، أنْتا!

٣ أراكَ تُحِبُّ عِرْساً ذاتَ غَدرٍ أبَتَّ طَلاقَها الأكْياسُ بَتّا

٤ تنامُ الدَّهرَ وَيحَكَ في غَطيطٍ بِهَا حَتَّى إذا مِتَّ انتَبَهْتَا

٥ فكَمْ ذا أنتَ مَخدوعٌ وحتّى مَتى لاتَرعَوِي عَنها وحَتّى؟

---

(٣) العِرْسُ : امرأة الرّجل (وتقال أيضاً لرجل المرأة فهما عرسان) .
ويقال : أَبَتَّ الطلاقَ بَتَّةً وإبتاتا : أوقعه باتّا . أمّا البتُّ فمصدر فعل بتّ ؛ يقال : بَتَّ الطلاقَ أي أوقعه ثلاثاً باتّاً . وفي نهج البلاغة بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله : « يادنيا ! يادُنيا ! إليك عني ؛ أبي تعرّضت ؟ أم إليّ تَشَوَّفْتِ ؟ لاحان حينك ! هيهات ! غرّي غيري ، لاحاجة لي فيك ؛ قد طلقتك ثلاثاً لارجعة فيها ! » .

(٤) يقال : غطّ النائم غَطّاً وغطيطاً أي : شخر وسُمِعَ له غطيط ، وفي « كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » (٣١٢/١) عند ذكره الكلام المشهور : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) مانصّه : « هو من قول علي بن أبي طالب ؛ لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري ولفظه في ترجمته ، ومن كلامه : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا ماتوا ندموا ، وإن ندموا لم تنفعهم ندامتهم » .

(٥) يقال ارعوى عن كذا أي : كفّ وحَسُن رجوعه عنه .

٦	أبـا بكرٍ دَعَـوتُـكَ لـو أجَبتـا	إلى مـا فيـهِ حَظُّـكَ إن عَقَلْتـا
٧	إلى عِلْمٍ تكـونُ بــهِ إمــامـاً	مُطـاعــاً إن نَهَيْتَ وإنْ أمَرْتـا
٨	وتَجلو مـا بِعَينِـكَ مِن عَشَـاهـا	وتَهـديـكَ السَّبيـلَ إذا ضَلَلْتـا
٩	وتَحْمِـلُ مِنـهُ في نـادِيكَ تـاجـاً	ويكسُـوكَ الجَمـالَ إذا اغتَرَبْتـا
١٠	يَنـالُـكَ نَفْعُـهُ مـادُمْتَ حَيّـاً	ويَبْقى ذُخرُهُ لـكَ إن ذَهَبتـا
١١	هُـوَ العَضبُ الْمُهنَّـدُ ليس يَنبُـو	تُصِيبُ بـهِ مَقـاتِـلَ مَنْ ضَرَبتـا
١٢	وكَنزاً لاتَخـافُ عليـهِ لِصّـاً	خَفيفَ الْحَملِ يُوجَدُ حيثُ كُنتـا
١٣	يَـزِيـدُ بكَثْرَةِ الإنفـاقِ مِنْـهُ	ويَنقُصُ أن بـهِ كفّـاً شَـدَدْتـا

(٦) (أبو بكر) كنية المخاطب المباشر في القصيدة ، وقد نبَّه إليه مرة أخرى في القصيدة (انظر البيت ٨٧ وما قبله وما بعده) ، وجعل الحديث إليه وسيلة لبسط آرائه ومواقفه . ولم نهتـدِ إلى المخاطب بهذه الكنية في القصيدة . لم أهتد إليه يقيناً ؛ ولعله أبو بكر بن الحاج المخاطب بالقصيدة [٣١] من هذا الديوان . ويدل البيت ٨٩ هنا على أن أبا بكر قد هجاه .

(٨) العَشا : ضعف البصر . ونذكر هنا بعض قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيريَ الأندلسي (يتيمة الدّهر ١٠٢/٢) :

واعلَمْ بـأن العلم أرفـع رتبـة	وأجـلّ مكتسب وأسنى مفخرِ
فـاسلـك سبيـل المقتنين لـه تسـدْ	إن السيـادة تقتنى بـالـدفتر
والعـالم المـدعـوّ حَبْراً إنمـا	سمّاه باسم الْحَبْرِ حَمْلُ الْمِحْبَرِ !

وقصيدة عبد الملك هذه من عيونِ شعرِ الحكمة .

(١١) العَضْب : السيف القاطع ، والمهنّد : السيف ؛ وأصل معناه من هَنّد السيف أي شحذه ، أو هو منسوب إلى الهند (المطبوع من حديد الهند) .

(١٢) في شعر الشافعي رضي الله عنه (ديوانه : ١٠٠)

عِلمي معي حيثما يَممت كان معي	قَلبي وعـاءٌ لـه لابَطنُ صُنـدوق
إن كنت في البيتِ كان العلمُ فيـه معي	أو كنتُ في السُّوق كان العِلم في السُّوقِ !

(١٣) في الأصل (أن) ، كما هو مثبتّ ؛ والشرط في الجملة عندي مقبول .

١٤ فلـو قـد ذُقتَ من حَلـواهُ طَعماً — لآثَرْتَ التعلُّمَ واجتَهَـدتـا

١٥ ولم يَشغلْـكَ عنـهُ هَوًى مُطـاعٌ — ولا دُنيـا بِـزُخْرُفِهـا فُتِنْتـا

١٦ ولا ألهـاكَ عَنـهُ أنيـقُ رَوْضٍ — ولا خِـدرٌ بِرَبرَبِـهِ كَلِفْتـا

١٧ فَقُـوتُ الرُّوحِ أرواحُ الْمَعـاني — وليسَ بـأن طَعِمتَ وأن شَرِبتـا

١٨ فَـواظِبْـه وخُـذ بـالْجِـدِّ فيـهِ — فـإنْ أعطـاكَـهُ اللهُ أخَـذتـا

١٩ وإن أُوتِيْتَ فيـهِ طَـويـلَ بـاعٍ — وقـالَ النَّـاسُ إنَّـكَ قـد سَبقتـا

٢٠ فـلا تـأمَنْ سـؤالَ اللهِ عنـهُ — بتـوبيخٍ : عَلِمْتَ فهـل عَمِلْتـا ؟

٢١ فَرأْسُ العِلمِ تَقـوى اللهِ حقًّـاً — ولَيسَ بـأن يُقـال: لقـد رَأستـا

٢٢ وضَـافي ثَـوبِـكَ الإحسـانُ لاأن — تُرى ثَـوبَ الإسـاءَةِ قـد لَبِسْتـا

---

(١٦) الخِدر (بالكسر) ستر يُمدُّ للجارية في البيت ؛ وكلُّ ماواراك من بيت ونحوه . والرَّبرب : القطيع من بقر الوحش . شبّه النساء الجميلات بالبقر الوحشي .

(١٨) في الأساس : وَظَب على الأمر ، وواظب عليه ، وقول الشاعر : (واظِبْهُ) ـ أي : تعدية الفعل إلى المفعول ـ لم يردْ في كتب اللغة ؛ ولا أعرفه في آثار الأدباء ..

(٢٠) في كشف الخفا (لاتزول قدما ابن ادم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به) . رواه الطبراني ورواه الترمذي (٣٧٨/٢) . وفي سنن الدارمي (٨٢/١) عن أبي كبشة السّلولي قال : سمعت أبا الدرداء يقول : إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالمٌ لا يُنْتَفَعُ بعلمه .

(٢١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله تعالى (الفتح الكبير : ١٢٢/٢) .

(٢٢) روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبر » ، قال رجل : إنّ الرّجل يُحبّ أن يكون ثوبُه حسَناً ونعله حسَناً ! قال : « إنّ الله جميل يحبّ الجمال ؛ الكِبرُ : بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النّاس » .

٢٣	إذا مـــالَمْ يُفِـــدْكَ العلِمُ خَيْراً	فَخَيْرٌ منـــهُ أنْ لـوقَــدْ جَهِلْتـــا
٢٤	وإنْ ألقَـــاكَ فَهْمُــكَ في مَهـــاوٍ	فليتَـكَ ـثُمَّ لَيْتَـكَ !ـ مـا فَهِمتـا
٢٥	سَتَجْني منْ ثِمارِ العَجْـــزِ جَهْـــلاً	وتَصْغُرُ في العُيـونِ إذا كَبُرتـــا
٢٦	وتُفقَـــدُ إن جهلتَ وأنتَ بـــاقٍ	وتُـوجَـدُ إن عَلِمْتَ وقَدْ فُقِـدْتـا
٢٧	وتَــذكُر قَــوْلَتي لــكَ بعــدَ حِيْنٍ	وتَغْبِطُهـــا إذا عَنْهـــا شُغِلتـــا
٢٨	لَسَـوف تَعَضُّ من نَـــدَمٍ عَلَيْهـــا	ومـــا تُغني النَّـدامَـةُ إنْ نَـدِمْتـا
٢٩	إذا أبْصَرتَ صَحْبَـــــكَ في سَماءٍ	قَـد ارتَفَعوا عَلَيْكَ وقَـد سَفَلْتـا
٣٠	فَراجِعْهـــا ودَعْ عَنــكَ الْهُـوَيْنى	فمـا بـالبُـطءِ تُـدْرِكُ مـا طَلَبْتـا
٣١	ولا تَحفِــلْ بمـالِـكَ والْـهُ عنـهُ	فليسَ المـــالُ إلاَّ مـــا عَلِمتـــا
٣٢	وليسَ لجـاهِـلٍ في النَّـاسِ مَعْنًى	ولــو مُلْــكُ العِراقِ لــهُ تــأَتَّى

(٢٣) في الدعاء المشهور : « إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع » وفيه « سلوا الله علماً نـافعـاً » و « اللهم إنِّي أسألك علماً نافعاً » .

(٢٥) كَبُر (بضم الباء) : عَظُمَ ، وهو يريد معنى التكبّر والتّعاظم .

(٢٧) تغبطها : أي تتمنى الحصولَ عليها (بعد تضييعها أو التشاغل والانشغال عنها) .

(٢٩) في سماء : أي في منزلة عالية (مادياً ومعنوياً) .

(٣٠) الهُوينى : التؤدة والرفق والسكينة والوقار .

(٣١) ينبه الشاعرُ السامعَ والقارئ على ما في القرآن الكريم من صفة المال في بعض الآيات التي ورد فيها ذكر المال ؛ قال تعالى في سورة الأنفال (٢٨/٨) : ﴿ واعْلَمُوا أنَّما أموالُكُم وأَولادُكُم فِتنَـةٌ ﴾ . وفي سورة سبأ (٣٧/٣٤) ﴿ وما أموالُكم ولا أولادُكم بـالّتي تُقَرِّبُكم عنـدنـا زُلفى ﴾ . وفي سورة المنافقون (٩/٦٣) ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا لا تُلهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عَنْ ذِكرِ الله ﴾ .

(٣٢) ضرب المثـل بـ (ملـك العراقين) لمـا هـو واسعٌ كثير من السلطـة والملـك ، ومنـه قـول أبي الطيب :

وغيرُ كثير أن يـــزورَك راجــلٌ ... فيرجـع ملكاً للعراقين واليـــاً !

٣٣	سَيَنطِقُ عَنْكَ عِلمُكَ في نَدِيٍّ	ويُكتَبُ عَنكَ يَوماً إن كَتبتا
٣٤	وما يُغنيكَ تشييدُ المَباني	إذا بالْجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا
٣٥	جَعَلتَ المالَ فوقَ العِلمِ جَهلاً	لَعَمْرُكَ في القضِيَّةِ ما عَدَلتا
٣٦	وبَينَهُما بنَصِّ الوَحيِ بَونٌ	سَتَعلَمُهُ إذا «طَهَ» قرأْتا
٣٧	لئِنْ رَفَعَ الغنيُّ لواءَ مالٍ	لأَنْتَ لواءَ عِلْمِكَ قد رَفَعتا
٣٨	وإنْ جَلَسَ الغنيُّ على الْحَشايا	لأَنْتَ عَلى الكواكبِ قد جَلَسْتا
٣٩	وإن ركبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ	لأَنتَ مناهِجَ التَّقوى ركِبْتا
٤٠	ومَهما افتَضَّ أبكارَ الغَواني	فكَمْ بِكرٍ منَ الحِكَم افتَضَضتا
٤١	وليسَ يَضُرُّكَ الإقتارُ شَيئاً	إذا ما أنتَ ربَّكَ قَد عَرَفتا
٤٢	فَماذا عِندَهُ لكَ منْ جميلٍ	إذا بِفِناءِ طاعَتِهِ أَنَخْتا
٤٣	فقابِل بالقَبولِ صَحيحَ نُصحي	فإن أعرَضتَ عنه فقد خَسرتا

---

(٣٣) النَّديّ والنادي : مجتمع القوم .

(٣٦) قال البلوي (ألف باء ١٣/١) معلقاً على إشارة البيت : يريد قوله تعالى ﴿ وَقلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾ [طه ١١٤/٢٠] .

(٣٨) الحشايا : ج الْحَشِيَّة : الفراش المحشو ؛ وهو ـ كما في متن اللّغة ـ المعروف في الشام بالطرّاحة . وما تزال الكلمة حيّة في ديار الشام . والبيت في معنى : رُتبةُ العلم أعلى الرتب .

(٣٩) سوّم الفرس : أعلمه بسومة . والسّومة : السّمة والعلامة .

(٤١) الإقتار مصدر أَقْتَر الرجل : قلَّ ماله وضاق عيشه .

(٤٢) استعمل (ماذا) بدلاً من (كم ذا) لأنّ المعنى : إذا لزمت طاعة الله سبحانه وتعالى ، ظفرت بكثير مما أعدَّ الله لعباده من أهل الطاعة . وكلمة (جميل) صفة لموصوف محذوف مقدّر .

٤٤	وَإنْ راعَيْتَــهُ قــولاً وفِعْــلاً	وتــاجَرْتَ الإلَـهَ بِــهِ رَبِحْتــا
٤٥	فليْسَت هــذِهِ الــدُّنيــا بشيءٍ	تَسُــوؤُكَ حقْبَــةً وتَسُرُّ وَقْتــا
٤٦	وغــايَتُهــا إذا فكَّرتَ فيهــا	كَفَيْئِـكَ أو كَحُلْمِـكَ إنْ حَلَمتـا
٤٧	سُجِنْتَ بِهــا وأنْتَ لهــا مُحِبٌّ	فكيف تُحِبُّ مــا فيــهِ سُجِنتــا
٤٨	وتُطعِمُـكَ الطَّعــامَ وعن قَريبٍ	ستَطْعَمُ منـكَ مــامِنْهــا طَعِمْتــا
٤٩	وتَعْرَى إنْ لَبِسْتَ لهــا ثِيــاباً	وتُكْسى إنْ مــلابِسَهــا خَلَعْتــا
٥٠	وتشهَــدُ كلَّ يــومٍ دَفنَ خِــلٍّ	كأنَّــكَ لاتُرادُ بِما شَهِــدتــا !
٥١	ولَمْ تُخْلَــق لِتَعْمُرَهــا ولكنْ	لِتَعْبُرَهــا فَجِــدَّ لِما خُلِقْتــا
٥٢	وإن هُـدِمَتْ فَـزِدهـا أنتَ هَـدماً	وحَصِّن أمرَ دينـكَ مـا استطَعتـا

---

(٤٤) في سورة فاطر [٣٥/٢٩] : ﴿ إنَّ الذين يتلون كتابَ اللهِ وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفقوا مما رزقنـاهم سِرّاً وعلانيـةً يَرجون تجـارةً لن تَبور ﴾ . وفي سورة الصف [٦١/١٠] : ﴿ يـا أيُّهـا الـذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم ، تؤمنون باللهِ ورسوله وتجاهـدون في سبيلِ الله بـأمـوالِكم وأنفسِكم ذلكُمْ خيرٌ لكم إنْ كُنتم تعْلمـون ﴾ والمرادُ بـالمتـاجرة في الآيتين الكريمتين : المعنى المجازي .

و « التجارة » تَرِدُ للعمل : يترتّب عليه خيرٌ أو شرّ .

(٤٦) الفيء ـ هنا ـ ما كان شمساً فينسخه الظل ، والحُلم بضم اللام وسكونها .

(٤٧) في الحديث : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . رواه مسلم وغيره .

(٥١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : نـام رسول الله ﷺ على حَصير فقـام وقـد أثّر في جنبه ؛ قلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء فقال : « ما لي وللدُّنيـا ؟ مـا أنـا في الـدنيـا إلا كراكبٍ استظـلَّ تحتَ شَجرة ، ثم راحَ وتركهـا » . رواه الترمـذي وقـال : حـديث حسن صحيح . وفي مسند الإمام أحمـد (٢/٢٤) أنَّ عبـدَ الله بنَ عُمَرَ بنِ الخطّـاب رضيَ اللهُ عنـه قال : أخذَ رسول اللهِ ﷺ ببعض جسدي فقال : « يا عبدَ الله ، كُنْ في الدُّنْيا كأنَّكَ غريبٌ أَوْ عابِرُ سبيلٍ ، واعْدُدْ نَفْسَكَ في المَوْتى » .

٥٣	ولا تحـزَنْ على مـا فـاتَ مِنْهـا	إذا مـا أنتَ في أُخْراكَ فُـزْتـا
٥٤	فليسَ بنـافـعٍ مـا نِلْتَ فيهـا	مِنَ الفـاني، إذا البـاقي حُرِمتـا
٥٥	ولا تَضْحَـك مـع السُّفهـاءِ لَهـواً	فـإنَّـكَ سوفَ تبكي إن ضَحِكتـا
٥٦	وكيفَ لـكَ السُّرورُ وأنتَ رَهنٌ	ولا تَـدري أتُفـدى أم غَلِقْتـا
٥٧	وسَل مِن رَبِّـكَ التَّوفيقَ فيهـا	وأَخلِصْ في السُّؤالِ إذا سَـأَلتـا
٥٨	ونـادِ إذا سَجَـدْتَ لـهُ اعْترافـاً	بمـا نـاداهُ ذو النُّـونِ بنُ مَتّى
٥٩	ولازِمْ بـابَـهُ قَرْعـاً عَسـاهُ	سَيَفتَـحُ بـابَـهُ لـكَ إن قَرَعْتـا
٦٠	وأَكثِرْ ذكرَهُ في الأَرضِ دَأْبـاً	لِتُـذكَرَ في السَّماءِ إذا ذَكَرْتـا
٦١	ولا تَقُـل الصِّبـا فيـه مَجـالٌ	وفَكِّرْ كم صَغيرٍ قـد دفَنْتـا !

---

(٥٣) راجع مافي التنزيل الحكيم (الحديد ٥٧ / الآيات ٢٢ ـ ٢٣) .

(٥٥) في سورة التوبة ٨٢/٩ : ﴿ فَلْيَضْحَكوا قَليلاً وَلْيَبْكوا كَثيراً جَزاءً بِما كانوا يَكْسِبون ﴾ .

(٥٦) غَلِقَ الرَّهْنُ : استحقّه الْمُرتهن ؛ وذلك إذا لم يُفْتَكّ في الوقت المشروط .

(٥٨) قال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٨٧ ـ ٨٨) : ﴿ وذا النُّون إذ ذهبَ مُغاضباً فظَنَّ أن لن نقدرَ عَليه فَنادى في الظُّلماتِ أنْ لا إلهَ إلاّ أنت سُبحانَك إنّي كُنت من الظّالمين . فاستجَبْنا له ونَجَّيْناهُ من الغَمّ وكذلك نُنجي الْمُؤمِنين ﴾ .

ـ قال القرطبي في تفسيره (٣٢٩/١١) : ذو النون لقب ليونس بن متّى (عليه السلام) ولُقب بذلك لابتلاع النون إياه .

ـ والنون : الحوت .

(٦٠) في التنزيل الحكيم [البقرة ١٥٢/٢] : ﴿ فاذكُروني أذكُركم واشكُروا لي ولا تَكْفُرون ﴾ .

(٦١) في كشف الخفا (١٤٨/١) : « اغتنمْ خمساً قبلَ خَمس ؛ حياتك قبل موتك ، وصحّتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » . رواه الحاكم وصححه البيهقي عن ابن عباس . قال : قاله رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظهُ .

٦٢	وقُـلْ لي يـا نَصيـحُ لأَنْتَ أَولى	بنُصْحِكَ لو بعقلكَ قد نَظَرْتا
٦٣	تُقطِّعني على التَّفريطِ لَوْماً	وبالتَّفريطِ دهْرَكَ قد قَطعتا
٦٤	وفي صِغَري تُخَوِّفُني الْمَنايا	وما تَجْري بِبالِكَ حِينَ شِخْتا
٦٥	وكُنْتَ مع الصِّبا أَهْدَى سبيلاً	فما لكَ بعدَ شَيْبكَ قد نُكِستا
٦٦	وها أنا لم أَخُضْ بَحْرَ الْخَطايا	كما قَدْ خُضْتَهُ حتّى غَرِقتا
٦٧	ولم أَشْرَبْ حُمَيّا أُمِّ دَفْرٍ	وأَنتَ شَرِبْتَها حتَّى سَكِرتا
٦٨	ولم أَحْلُلْ بِوادٍ فيه ظُلْمٌ	وأَنتَ حَللتَ فيهِ وانْهَمَلتا
٦٩	ولم أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فيهِ نَفعٌ	وأَنتَ نشأْتَ فيه وما انتفَعْتا
٧٠	وقد صاحَبْتَ أَعْلاماً كِباراً	ولم أَرَكَ اقتديْتَ بِمَنْ صَحِبْتا
٧١	ونـاداكَ الكِتابُ فلَم تُجبْهُ	ونَهْنَهَكَ الْمَشيبُ فَما انتبهْتا
٧٢	لَيَقْبُحُ بالفَتى فِعْلُ التَّصابي	وأَقبَحُ منهُ شيخٌ قد تَفتَّى

---

(٦٢) يقال : هو ناصح ونَصيح ، من فعل نصح ؛ يقال : نصَحه ونصَح له .

(٦٣) فرَّط في الشيء : ضيّعه وقدّم العَجْزَ فيه ؛ وقصّر .

(٦٥) يقال : نُكِس المريض : إذا عاودَتْه العلّة بعد النَّقه . ونُكس على رأسه : رجع عمّا عرفه . وفي التّنزيل العزيز في ذكر قوم إبراهيم ﴿ ثُمَّ نُكِسوا على رُؤوسهم ﴾ .

(٦٧) أمُّ دَفْرٍ : كنيةُ الدنيا . (انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : ٢٥٧) .
والحميّا من الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها ، أو أخذها بالرأس .

(٦٨) أصل معنى هَمل (الدمع) وانهمل : انصبّ ، وانهملت العين : فاضت .

(٧١) نهنهه عن الأمر : كفّه وزجره .

(٧٢) شيخ قد تَفَتّى : سلك سبيل الفتيان .
وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خير شبابكم من تشبّه بكهولكم ، وشرُّ كهولكم من تشبّه بشبابكم » رواه في بهجة المجالس ٢/٢١١

٧٣ فـأنتَ أَحَـقُّ بـالتَّفنيـدِ مِنّي ولـو سكتَ الْمُسيءُ لَما نَطَقْتـا

٧٤ ونَفْسَـكَ ذُمَّ لاتَـذمَمْ سِـواهـا بعَيْبٍ فهيَ أَجـدَرُ مَنْ ذَمَمْتـا !

٧٥ فلـو بَكَتِ الـدِّمـا عينـاكَ خَـوفاً لِـذَنبِـكَ لمْ أَقُـلْ لـكَ قـد أَمِنتـا

٧٦ ومَن لـكَ بـالأَمـانِ وأَنْتَ عبـدٌ أُمِرتَ فَما ائتَمرتَ ولا أَطعتـا

٧٧ ثَقُلتَ مِنَ الـذُّنـوبِ ولستَ تَخْشى لجهلِـكَ أَنْ تَخِفَّ إذا وُزِنتـا

٧٨ وتُشفِـق للْمُصِرّ على الْمَعـاصي وتَرحَمُـهُ، ونَفسَـكَ مـا رَحِمتـا

٧٩ رجعتَ القَهقَرى وخَبطتَ عشـوا لَعَمرُكَ لـو وصَلْتَ لَما رَجَعتـا !

٨٠ ولـو وافَيتَ ربَّـكَ دونَ ذَنْبٍ ونـاقَشَـكَ الحِسـابَ إذاً هَلَكتـا

٨١ ولم يظلمـكَ في عَمَـلٍ ولكن عَسيرٌ أن تقـومَ بمـا حَمَلْتـا

٨٢ ولَـو قـد جئتَ يـومَ الفَصـلِ فَرداً وأبصرتَ المنـازلَ فيـه شَتَّى

٨٣ لأَعظَمتَ النَّـدامـةَ فيـهِ لَهفـاً على مـا في حَيـاتـكَ قـد أَضَعْتـا

---

(٧٣) فنّده تفنيداً : كذّبه ، وعجّزه ، وخطّأ رأيه .

(٧٧) في التنزيل العزيز [القارعة ١٠١/٥-٩] : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُه فهو في عيشةٍ راضيـة . وأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوازينه فأُمُّهُ هاوية ﴾ .

(٧٨) في الأساس : أشفقت عليه أن يناله مكروه ، وأنا مشفق عليه من هذا الأمر .

(٧٩) رجع القهقرى : إلى الـوراء ، وخبـط عشـواء : مثَـلٌ ، وأصلـه من خبـط النـاقـة التي ضعف بصرها ، فهي لاتميّز أين تمضي وماذا تصيب في طريقها .

(٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذّب » . فقلت : أليس قد قال الله عز وجَلّ : ﴿ فسَوْفَ يحاسَبُ حساباً يَسيراً ﴾ فقال : « ليس ذاك الحساب ، إنما ذلك العَرْض ؛ من نوقش الحسابَ يوم القيامة عُذّب » .

(٨٢) في سـورة مريم [١٩/٩٣-٩٥] : ﴿ إنْ كُـلُّ مَنْ في السَّماواتَ والأَرض إلا آتي الرحمن عَبـدا . لقد أَحصاهُم وعدَّهم عدًّا . وَكُلهم آتيهِ يومَ القيامةِ فَردا ﴾ .

(٨٣) في التنزيل الحكيم [الزمر ٣٩/٥٥-٥٦] : ﴿ واتَّبعوا أَحسنَ ماأُنزلَ إليكم من ربكم مِن قبلِ أَنْ =

٨٤ تَفِرُّ مِنَ الْهَجيرِ وتتَّقيـــــــه فَهَــلاً عن جهنَّمَ قـــد فَرَرتـــا ؟
٨٥ ولستَ تُطيقُ أَهــوَنَهـا عَــذابــاً ولـو كنتَ الحـديـدَ بهـا لَـذُبتـا
٨٦ فـلا تُكـذبْ فـإنَّ الأمْرَ جِـدٌّ وليسَ كما احتسَبْتَ ولا ظَنَنْتـــا
٨٧ أَبـــا بكرٍ كَشَفتَ أقــلَّ عَيبي وأَكثَرَهُ ومُعظَمــــهُ سَتَرتــــا
٨٨ فقُـلْ مـا شئتَ فيَّ من المخـازي وضـاعِفْها فـإنَّـكَ قـد صَـدَقتـا
٨٩ ومهْما عِبتَني فَلِفرطِ عِلمي ببـاطنَتي كأنَّـكَ قـد مَـدَحْتـا
٩٠ فـلا تَرْضَ الْمَعـايبَ فهيَ عـارٌ عَظيمٌ يـورِثُ الإنســانَ مَقْتــا
٩١ وتَهـوي بـالـوَجيـهِ مِنَ الثُّرَيَّـا وتُبْــدِلُــهُ مكانَ الفَـوْقِ تَحْتــا
٩٢ كما الطَّـاعـاتُ تَنعَلُـكَ الـدَّراري وتجعلُـكَ القريبَ وإن بَعُـدْتـا
٩٣ وتنشُرُ عنـكَ في الـدُّنيـا جميـلاً فتُلْفَى البَرَّ فيهـا حيثُ كُنتـا
٩٤ وتَمشي في مَنـاكِبهـا كَريمـاً وتَجني الْحَمـدَ مِمَّـا قـد غَرَسْتـا

= يأتيَكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون . أنْ تقولَ نفسٌ يـا حسرتـا على مـافرَّطتُ في جَنبِ الله وإن كنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ .

(٨٤) الهجير : نصف النهار في القيظ خاصة (أي في عزِّ الصيف) .

(٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث رسول الله ﷺ : « أهونُ الناس عذاباً يوم القيامة رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » . الفتح الكبير (٤٧٢/١) .

(٨٦) أي لا يكن منك غفلة فتصدق ما يُكذب به عليك في أحوال الآخرة ؛ واحتسبه : ظنه .

(٨٩) الباطنة من الرجل : سريرته .

(٩٠) يقال : مقته يمقته مقتاً أي : أبغضه أشد البغض وكرهه لقبيح ركبه . وقد وردت الكلمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم .

(٩١) الوجيه : ذو الجاه والقدر .

(٩٢) أي تجعل الدراري (النَّجوم) كالنعل لك (على سبيل المبالغة وضرب المثل) .

٩٥ وأنتَ الآنَ لَمْ تُعرفْ بِعــــابٍ	ولا دنَّستَ ثوبَكَ مُذ نشأتا
٩٦ ولا سـابَقتَ في ميـدانِ زُورٍ	ولا أوضَعْتَ فيـهِ ولا خَبَبْتا
٩٧ فـإنْ لم تَنـأَ عنـهُ نَشِبتَ فيـهِ	ومَنْ لـكَ بـالْخَلاصِ إذا نَشِبتا
٩٨ ودَنَّسَ مـا تَطهَّرَ منـكَ حتَّى	كأنَّـكَ قبـلَ ذلـكَ مـا طَهُرتا
٩٩ وصِرتَ أسيرَ ذَنبِـكَ في وَثـاقٍ	وكيفَ لـكَ الفكاكُ وقـد أُسِرتا
١٠٠ وخَفْ أبنـاءَ جنسِكَ واخْشَ مِنْهُم	كما تخشَى الضَّراغِمَ والسَّبَنْتَى
١٠١ وخـالِطْهُم وزايِلهُم حِـذاراً	وكنْ كالسّـامريّ إذا لمسْتـا
١٠٢ وإن جَهلوا عليكَ فقُلْ سَلامـاً	لعلَّـكَ سـوف تسْلم إنْ فَعَلْتـا
١٠٣ ومَنْ لـكَ بـالسَّلامـةِ في زَمـانٍ	ينـالُ العُصْمَ إلا إنْ عُصمتـا

(٩٥) العاب : الوصمة .

(٩٦) الْخَبَب : ضَرب من العَدو . وأوضعت الناقة في سيرها : أسرعت .

(٩٧) نشب في الأمر : وقع فيما لا مَخْلَص له منه .

(١٠٠) في هامش الأصل المخطوط : الضراغم : الأسود . السبنتى : النَّمر .

(١٠١) كان السامري عظيماً في بني إسرائيل ـ قيل هو منهم وقيل : دخل فيهم . دعاهم إلى الضلالة وعبادة العجل . قال الحسن : جعل اللهُ عقوبةَ السامريِّ ألا يماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة . وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة بأنْ جعله لا يماس أحداً ولا يمكن من أن يمسه أحد . ومعنى زايلهم : فارقهم .

ـ راجع تفسير القرطبي لخبر السامري ٢٣٢/١١ وما بعدها . وفي التنزيل الحكيم في سورة طه [٩٧/٢٠] : ﴿ قال فاذهبْ فإنّ لكَ في الحياةِ أن تقولَ لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظرْ إلى إلهك الذي ظلْتَ عليه عاكفاً لَنُحرِّقَنَّه ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفا ﴾ .

(١٠٢) في التنزيل الحكيم [الفرقان ٦٣/٢٥] : ﴿ وعبادُ الرَّحمنِ الذين يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبهم الجاهِلونَ قالوا سَلاما ﴾ .

(١٠٣) العُصم (بالضم) جمع أعصم ، وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . وأراد مُطْلَق الوعول لأنها تسكن الجبال .

١٠٤ ولا تَلبَثْ بِحَيٍّ فيـــهِ ضَيْمٌ　　يُميتُ القَلبَ إلا إنْ كُبِلْتـــا
١٠٥ وغَرِّبْ فــالغَريبُ لــهُ نَفــاقٌ　　وشرِّقْ إنْ بِريقكَ قــد شَرقتــا
١٠٦ ولَــوْ فــوقَ الأميرِ تَكــونُ فيهــا　　سُمُــوّاً وافتخــاراً كنتَ أنتــا
١٠٧ وإنْ فرَّقْتَهــا وخرجْتَ مِنْهــا　　إلى دارِ السَّلامِ فقــد سَلِمتــا
١٠٨ وإنْ كَرَّمْتَهــا ونَظَرْتَ مِنْهــا　　بـإجـلالٍ فنفسَـكَ قَـدْ أَهَنْتــا
١٠٩ جمعتُ لـكَ النَّصـائحَ فـامْتَثِلْها　　حيـاتَـكَ ؛ فهيَ أفْضَـلُ مـا امْتَثَلْتـا
١١٠ وطَـوَّلْتُ العِتــابَ وزدْتُ فيــهِ　　لأنَّـكَ في البَطـالـةِ قـد أَطَلْتـا
١١١ فــلا تــأخُــذْ بتقصيري وسَهْــوي　　وخُـذْ بـوصِيَّتي لـكَ إنْ رَشَـدْتـا
١١٢ وقــد أَرْدَفْتُهــا ستّــاً حِســانــاً　　وكانَتْ قَبْـلَ ذا مِئـــةً وسِتّـــا

---

(١٠٤) وفي شعر المتلمس (ديوانه : ١٩٦) ويجري كلامه مجرى المثل :

ولا يقيمُ على ضيمٍ يُســام بــهُ　　إلا الأذلاّن عَيْرُ الحيّ والـوَتِــدُ
هـذا على الخسفِ مربوطٌ برُمّتِـه　　وذا يُشَـجّ فـلا يَرثي لـه أحـدُ!

(١٠٥) قوله : غرّب وشرّق : أي سرْ في الأرض وتحول عن مواطن الضيم .

(١٠٧) في الأصل المخطوط : فرَّقتها . وأقرؤها بالألف (فارقتها) لمناسبة المعنى الظاهر .

(١٠٩) امتثل الطريقة : اتبعها فلم يَعْدُها (لم يتجاوزها) .

(١١٢) الإشارة إلى عدد أبيات القصيدة . فهي في ١١٢ بيتاً ، كانت في الأصل ١٠٦ أبيـات وزاد فيها ٦ أبيات .

[٢]

وله أيضاً ـ رحمه الله ورضي عنه ـ

[النص قصيدة كاملة من خمسة عشر بيتاً . وقد أدارها الشاعر على موضوع الموت باعتباره نذيراً مهمّاً ينذر الإنسان (بترقّبه وظهور معالمه) وجعل الأبيات ١ ـ ٣ مقدمة ومدخلاً ، ثم استرسل في أثر الزمن الذي يخبره بأن لكل حيٍّ نهاية ٤ ـ ١١ ووقف عند الذنوب ، ولام نفسه ورثى لها قبل موتها ١٢ ـ ١٤] .

[من الوافر]

١	تُغازِلُني الْمَنِيَّةُ من قَريبِ	وتَلحَظُني مُلاحظَةَ الرَّقيبِ
٢	وتَنشرُ لي كِتاباً فيهِ طَيِّي	بخَطِّ الدَّهرِ أسطُرُه مَشيبي
٣	كِتابٌ في مَعانيهِ غُموضٌ	يلوحُ لكُلِّ أوَّابٍ مُنيبِ
٤	أرى الأعصارَ تعصِرُ ماءَ عُودي	وقِدماً كنتُ ريَّانَ القَضيبِ
٥	أدالَ الشَّيبُ يا صاحِ شَبابي	فعُوِّضْتُ البَغيضَ من الحبيبِ
٦	وبُدِّلتُ التَّثاقُلَ مِن نَشاطي	ومِن حُسْنِ النَّضارَةِ بالشُّحوبِ

---

(١) يقال غازَل النساء : أي حادثهن ولَها معهنّ . والمغازلة في البيت هنا على المجاز .

(٤) الأعصار جمع : العصر ؛ ويقال : عُصور وأعْصُر وعُصُر ، والعَصْرُ يُطلق على كلّ مدة ممتدة غير محدودة . وأراد بها السنين .

(٥) أي غلب الشيبُ الشباب . وفي كتب اللغة : أداله الله من عدوه : كانت له الغلبة والنصرة والدولة عليه .

٧	كَـذاكَ الشَّمْسُ يعلـوهـا اصفِرارٌ	إذا جنحَتْ ومـــالَتْ للغُروبِ
٨	تُحـــارِبُنـــا جُنـودٌ لا تُجـــارى	ولا تُلقى بـــآســـادِ الْحُروبِ
٩	هيَ الأَقـــدارُ والآجـــالُ تـــأْتي	فَتَنْــزِلُ بـــالْمُطَبَّبِ والطَّبيبِ
١٠	تُفَــوِّقُ أَسهُماً عن قَــوسِ غَيبٍ	ومـــا أغراضُهـــا غيْرُ القُلـوبِ
١١	فـــأَنَّى بـــاحتِراسٍ مِنْ جُنـودٍ	مـؤيَّـــدَةٍ تُمَـــدُّ مِنَ الغُيـوبِ
١٢	ومـــا آسَى على الــدُّنيـــا ولكنْ	على مـا قــد ركبتُ من الــذُّنـوبِ
١٣	فيـــا لَهفي على طُــولِ اغتِراري	ويـــا وَيحي من اليــومِ العَصيبِ
١٤	إذا أنـــا لم أُنَـــحْ نَفسي وأَبكي	على حُــوبي بِتَهْتـــانٍ سَكــوبِ
١٥	فَمَنْ هــذا الّــذي بَعــدي سيَبكي	عليهـــا من بَعيــــدٍ أو قريبِ ؟

---

(٧) جنحت : بمعنى مالت .

(١٠) في اللسان (فـوق) : الفوق من السّهم : موضع الوتر ، والجمع أفواق ، وفي حديث علي عليه السلام يصف أبـا بكر رضي الله عنـه : كنت أخفضهم صوتـاً وأعلاهم فُـوقـاً أي أكثرهم حظّـاً ونصيباً من الدين . وهو مستعار مِن فُوق السّهم : موضع الوتر منه .
وفـوّق السهم : جعـل الـوتر في فـوقـه عنـد الرمي . والفـوقُ هـو مـوضـع الـوتر من السّهم ، والغرض : الهدف الذي يُرمى فيه الشيءُ المقصود .

(١٣) العصيب من الأمر والأيام والليالي : الشديد .

(١٤) يقال : ناحت المرأة زوجها ، وناحت عليه .
ـ الحوب : الإثم .

[٣]

وله ـ رحمه الله ونضَّر وجهه

[توصل الشاعر من حوار أجراه مع حمامة ساجعة إلى إثبات مجاراته تلك الحمامة في البكاء على اختلاف بينه وبينها ، فهي ـ كما قرر ـ تشكو فرقة المؤنس الحبيب وهو يشكو عبء الذنوب] .

[من الكامل]

١ أحمامَةَ البَيدا أطَلْتِ بُكاكِ فَبِحُسن صَوتكِ ما الّذي أبكاكِ ؟
٢ إن كانَ حقّاً ما ظَنَنْتُ فإنَّ بي فوقَ الذي بكِ من شَديدِ جَواكِ

(١) في شعر يحيى بن هُذيل (٣٠٥ ـ ٣٨٩ هـ) قطعة يخاطب فيها الحمامة يقول فيها :

ومُرِنَّةٍ والدّجنُ ينسج فوقها بُردين من حَلَكٍ ونوءٍ باكِ
مالت على طيِّ الجناحِ وإنما جعلتْ أريكتها قضيب أراكِ
وترنَمت لَحْنَيْنِ قد خلّتها كغناء مُسمعةٍ وأنّة شاكِ
ففقدت من نفسي لفرط صبابتي نفسَ الحياة وقلت : مَن أبكاك ؟

وفي شعر يوسف بن هارون الرّمادي (المتوفى سنة ٤٠٣) معارضة لقطعة ابن هذيل ، فيها :

أحمامةً فوق الأراكة بَيّني بحياة من أبكاك ماأبكاك ؟
أمّا أنا فبكيت من حُرَق الهوى وفراقِ من أهوى أأنتِ كذاك ؟

وفي قصيدة الإلبيري ردّ غير مباشر على هذا الشعر وما يُشبهه .

(٢) الجوى : الْحُرقة وشدة الوجد من عشق أو حَزن .

٣	إنّي أَظُنُّـكِ قـد دُهيتِ بِفُرقَـةٍ	من مُؤنِسٍ لَـكِ فـارتَمَضْتِ لِـذاكِ
٤	لكنَّ مـا أَشكـوهُ مِن فَرْطِ الْجَـوى	بخِـلافِ مـا تَجـدينَ من شَكْـواكِ !
٥	أَنـا إنَّما أَبكي الـذُّنـوبَ وأَسْرَهـا	ومُنـايَ في الشَّكـوى مَنـالُ فَكاكي
٦	وإذا بكَيتُ سَـأَلتُ رَبّي رَحمَـةً	وتَجـاوُزاً؛ فَبُكايَ غَيرُ بُكاكِ !

(٢) في الأصل : فارتمضتُ ، بضم التاء . وظاهر أن الخطاب ـ ما زال ـ للحمامة (الأول من القصيدة) .

ـ والرمض شدة وقع الشمس على الرمل وغيره . ورمض يومُنا : اشتد حرّه الرمضاء : أحرقته .

[٤]

وله أيضاً رحمة الله عليه

[بدأ الشاعر القصيدة ببيت مفرد فيه دعوة إلى تطهير النفس من آثامها ولو بدمعة بكاء صادقة أو دمعة مُستجلبة ، ويدخل مباشرة إلى حديث الدنيا الخادعة الغَرور في حوار متخيّل بينه وبينها ، وبدأ بما تصنع لتخدع (٢ ـ ٩) وبما واجهها به (١٠ ـ ١٣) ووصف انخداع أكثر الناس بها (١٤ ـ ١٥) ورجع إلى الدنيا يسفّه رأيها وسلوكها وما تفعله بمن يحبّها (١٦ ـ ٢٢) ورأى العبرة فيمن مضى من الجبابرة والعظماء (٢٣ ـ ٢٦) وضرب المثل ـ على طريقته ـ من نفسه لينفتح له باب الكلام (٢٧ ـ ٢٩) وأعلى من شأن الزهد ، والزاهدين في عَرَض الحياة الدنيا (٣٠ ـ ٣٥) وختم ببيت واحد بالصلاة على رسول الله ﷺ] .

[من الكامل]

مَن لَيسَ بالباكي ولا المُتَباكي ... لِقَبيحِ ما يَأْتي فَلَيسَ بِزاكِ

نادتْ بِيَ الدُّنيا فقلْتُ لَها : اقْصِري ... ما عُدَّ في الأكياسِ مَن لَبّاكِ

ولَما صَفا عِنْدَ الإلَهِ ولا دَنا ... منهُ امْرُؤٌ صافاكِ أو داناكِ

---

(١) يقال : هو زاكٍ وزكِيَ من فعل زَكا ـ يزكو ، ومن معانيه : صَلُحَ .

(٢) نادى فُلاناً : دعاه ، وصاح بأعلى الأصواتِ ، ويقال : نادى به . أقصر : (بهمزة القطع) انتهى : وسهّلها الشاعر ضرورة .

٤	مـــا زِلْتِ خـــادِعَتي بِبَرْقٍ خُلَّبٍ	ولـو اهْتَـديتُ لَما انْخَـدَعْتُ لِـذاكِ
٥	قـالَتْ أَغَرَّكَ من جنـاحِـكَ طولُـهُ	وكَـأَنْ بِـهِ قَـد قُصَّ في أَشراكي
٦	تَـاللهِ مـا في الأَرضِ مَـوضِعُ راحَـةٍ	إلاّ وقَـد نُصِبَتْ عَلَيـهِ شِبـاكي
٧	طِرْ كَيفَ شِئتَ فَأَنتَ فيها واقِعٌ	عـانٍ بِهـا لا يُرتَجَى لِفَكاكِ
٨	مَنْ كانَ يَصرَعُ قِرنَـهُ في مَعرَكٍ	فَعَلَيَّ صَرعَتُـهُ بِغَيرِ عِراكِ
٩	ما أَعرِفُ العَضبَ الصَّقِيلَ ولا القَنا	ولقد بَطَشتُ بِذي السِّلاحِ الشّاكي
١٠	كَم ضَيغَمٍ عَفَّرتُـهُ بِعَرينِـهِ	ولكَم فَتكْتُ بِـأَفتَـكِ الفُتّـاكِ
١١	فـأَجَبتُهـا مُتعجِّبـاً مِن غَـدرِهـا	أَجَـزَيتِ بـالبَغضـاءِ مَن يهـواكِ ؟
١٢	لأَجَلْتُ عَيني في بَنيـكِ فَكلُّهم	أَسراكِ أَو جَرحـاكِ أو صَرعـاكِ
١٣	لَـو قـارَضوكِ على صَنيعـكِ فيهِمُ	قَطَعـوا مَـدى أَعمـارِهِم بِقِـلاكِ
١٤	طَمسَت عُقولَهُم ونُـورُ قُلـوبهم	فتهـافَتـوا حِرصـاً على حَلـواكِ
١٥	فَكأَنَّهُم مثلُ الذُّبـابِ تَسـاقطتْ	في الأَرْيِ حَتَّى استُؤصِلوا بِهلاكِ
١٦	لا كُنتِ مِن أُمٍّ لَنـا أَكّـالـةٍ	بعـدَ الـوِلادَةِ، مـا أَقَـلَّ حَيـاكِ !
١٧	ولقَـد عَهِـدنـا الأُمَّ تَلطُفُ بـابنِهـا	عَطفـاً عَلَيـهِ وأَنتِ مـا أَقسـاكِ

(٤) الْخلَّب : السحاب يومضُ برقهُ حتّى يُرجى مطره ثم يخلفُ ويتقشّع . يقال : برق خلّب ، والبرق الخلّب ... ويشبّهُ به من يَعِدُ ولا ينجز . والمعنى إسلاميّ قرآني ، ومنه مثلاً ما في سورة آل عمران (٣/١٨٥) : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾ .

(٥) الكاف في (أغرّك) و (جناحك) مكسورة في المخطوط . قلت : يُنظر الخطاب بعد ذلك .

(٧) عانٍ : أي أسير .

(٨) القِرن (بالكسر) كُفْؤُكَ في الشّجاعة ، أو هو عام .

(١٠) الضيغم من أسماء الأسد ، وهو الذي يعضّ كثيراً أو هو الواسع الشّدق .

(١٥) الأَرْيُ : العَسل .

١٨	مـا فـوقَ ظهرِكِ قـاطِنٌ أو ظـاعِنٌ	إلا سَيُهشَمُ في ثِفـــالِ رَحـــاكِ
١٩	أنتِ السَّرابُ وأنتِ داءٌ كامِنٌ	بينَ الضُّلـــوعِ فما أعَـــزَّ دَواكِ !
٢٠	يُعصَى الإلَــهُ إذا أُطِعتِ وطــاعَتي	لله رَبِّي أن أشُـــقَّ عَصــــاكِ
٢١	فَرضٌ عَلَينــا بِرُّنــا أُمّـــاتِنـــا	وعُقــــــــوقُهنَّ مُحَرَّمٌ إلاّكِ
٢٢	ما إن يَـدومُ الفقرُ فيـكِ ولا الغِنى	سِيَّـان فَقْرُكِ عِنـدَنـا وغِنـاكِ
٢٣	أينَ الْجَبــابرةُ الأُلى وَرِيـــاشُهُمْ	قـد بـاشَروا بَعـدَ الْحَريرِ ثَراكِ !
٢٤	وَلَطــالَما رُدُّوا بـــأَرديـــةِ البَهـــا	فَتَعـوَّضُـوا منهـــا رِداءَ رَداكِ
٢٥	كانت وُجــوهُهُمْ كَأَقمــارِ الــدُّجـا	فَغَــدَتْ مُسَجَّـاةً بِثَـوْبِ دُجـاكِ

---

(٢٤) قول الشاعر : رُدّوا بأردية البها : يُقال : رَدّاه : أي ألبسه الرّداء . والبهـا ، هي : البهـاء ، وسُهِّلت الهمزة .

(١٣) في الأسـاس : فـلان يُقـارض النـاس مقـارضةً : يُـلاحيهم ويُـواقِعُهم (كالمشـاتَمـة) وعن أبي الدرداء : إن قارضْتَ الناسَ قارضوك وإن تركتهم لم يَتْركوك !

(١٤) في الأسـاس : طمس الأثرُ ، وطمسَتْهُ الرّيح (أي يكون الفعل لازماً ويجيءُ متعدّياً) .

(١٥) الأرْي : العَسل .

(١٧) في شعر أبي نواس (ديوانه : ١٩٤) :

إذا امتحن الـدنيـا لبيبٌ تكشفت ... لـه عن عـدوٍّ في ثيـاب صَـديـقِ

(١٨) الثِّفال : الْحَجر الأسفل من الرّحى .

(٢٠) المعنى العـام لعبـارة « شقّ العصـا » هـو : خـالف الجمـاعـة وشـقَّ اجتماعهم . ويريـد الشـاعر بـ « شق عصا الدنيا » مخالفتها واتّباع أوامر الله واجتناب نواهيه .

(٢١) تجمع كلمة (أُمّ) على أمّات وأُمّهات ؛ والأغلب أن تجيء أُمّات لغير العاقل ، وأُمّهات للعاقل .

(٢٣) الرّياش والرِّيش ؛ بمعنًى ، وهو اللّباس الفـاخر .. وفي التنزيل العزيز [الأعراف ٢٦/٧] : ﴿ يا بني آدمَ قد أنْزَلْنا عليكم لباساً يواري سوءاتِكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلكَ خيرٌ ذلـك من آياتِ اللهِ لعلهم يَذَّكَّرونَ ﴾ .

٢٦ وَ عَنَت لِقَيُّـومِ السَّماواتِ العُـلا — رَبٌّ الجميـعِ ، وقـاهرِ الأَمـلاكِ

٢٧ وجَلالِ ربِّي لـو تَصِحُّ عَـزائِمي — لـزَهِدتُ فيـكِ ولابتَغَيتُ سِواكِ

٢٨ وأخَذتُ زادي منْكِ من عَمَل التُّقَى — وشَـدَدتُ إيمـاني بنَقضِ عُراكِ

٢٩ وحَطَطْتُ رَحلي تَحتَ أَلوِيَةِ الْهُدى — ولَما رآني الله تَحتَ لِـواكِ

٣٠ مَهلاً عَلَيكِ فَسَوفَ يَلحَقُكِ الفَنا — فَتُرَيْ بـلا أرضٍ ولا أفـلاكِ

٣١ ويُعيـدُنـا رَبٌّ أمـاتَ جَميعَنـا — لِيَكـونَ يُرْضي غَيْرَ مَنْ أرضـاكِ

٣٢ واللهِ مـا الْمَحبـوبُ عِنْـدَ مَليكِـهِ — إلا لَبيبٌ لم يَـزَل يَشْنـاكِ

٣٣ هَجرَ الغَـواني واصِـلاً لِعَقـائـلٍ — يضحَكنَ حُبّـاً للوليِّ البـاكي

٣٤ إنِّي أرِقتُ لَهُنَّ لا لِحَمائِمٍ — تَبكي الْهَـديـلَ على غُصـونِ أراكِ

٣٥ لا عَيشَ يَصفـو لِلْمُلـوكِ وإنَّما — تَصفـو وتُحمَـدُ عِيشَـةُ النُّسّـاكِ

٣٦ ومِنَ الإلَـهِ على النَّبيِّ صَـلاتُـهُ — عَـددَ النُّجـومِ وعِـدَّةَ الأَمـلاكِ

---

(٢٦) في التنزيل الحكيم [طه ٢٠/١١١] قوله تعالى : ﴿ وعنتِ الوجوهُ للحيِّ القيوم وَقَد خابَ من حَمل ظُلما ﴾ . ومعنى عنت : خضعت وذلت .

(٢٧) قوله : وجلالِ ربّي ؛ الواو هنا للقسم .

(٣٢) يَشناك : أصلها : يشنَؤُك ثم سُهلت الهمزة ، ومعناه يبغضك .

(٣٣) العقائل : جمع العقيلة ، وهي من النِّساء : الكريمة الْمُخَدَّرة النفيسة . والمقصود بهن هنا : الحور العين . والغواني جمع الغانية وهي في اللغة المرأة الْمُستغنية بحسنها عن الزينة والأصباغ ، والمقصود بهن هنا نساء الدُّنيا .

(٣٤) الهديل : ذكَرُ الحمام . وفي أساطيرهم : الهديل فرخٌ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من الطير ، فليس من حمامة إلا وتبكي عليه إلى يوم القيامة ! (حياة الحيوان ٢/٤٥١) .

(٣٦) قلت : الظاهر من البيت أنه يريد بالأَملاك : الملائكة ولم يَرِد هذا الجمع .

ـ وفي القاموس : الملَـكُ تجمع على ملائكـة وملائـك . وقد تكون الأملاك تحريف (الأفلاك) : جمع فلَك وهذا يناسب النّجوم المذكورة في البيت .

[٥]

وله - رضي الله عنه -

[تبدأ القصيدة بلوم ذاتي (١ - ٦) فإن أعمال الشاعر كما يقول تقصّر عن أن تنفعه ، ولا أمل إلا في عفو الله تعالى . وانتقل إلى واعظ الشيب (٧ - ٩) الذي كاد يَزجره لولا فتنة الدنيا (١٠ - ١٣) التي يشغل حبها عن كل عمل صالح ، ومرّ على ذكر العالم الخاسر الذي تشغله الدنيا بما فيها (١٤ - ١٦) وعلى ورطة المال والنشب وعَرَض الحياة (١٥ - ٢٢) وتوقف عند أخبار من مضى من القرون (٢٣ - ٢٩) واعتبر بأحوالهم (٣٠ - ٣٢) وعقب ببيت أخير ختم به القصيدة في موضوع مُراقبة الله عز وجل] .

[من الكامل]

١	لو كنتُ في ديني من الأَبطالِ	ما كُنتُ بالواني ولا البَطَّالِ
٢	ولبستُ منهُ لأْمَةً فضفاضةً	مسرودَةً من صالحِ الأَعمالِ
٣	لكنّني عَطَّلتُ أَقواس التُّقَى	من نَبلِها فَرَمَت بغَيرِ نِبالِ
٤	ورمى العدوُّ بسهمِهِ فأَصابَني	إذْ لم أُحَصِّنْ جُنَّةً لِنضالِ !

(١) الوَنى : الفَترة . وناقة وانية : فاترة . والبطَّال مِنْ بطَلَ في حديثه : هَزل . ورجلٌ بطّالٌ : ذو باطل ، بيّن البطول .

(٢) اللأْمَة : الدرع .

(٤) الجُنة : ما يقي ويحمي .

٥	فأنا كَمَنْ يَلْقى الكتيبةَ أَعْزلاً	في مَـأْزِقٍ متعرِّضاً لِنِزالِ
٦	لولا رَجاءُ العَفْوِ كنتُ كناقِعٍ	بَرحَ الغليلِ برشْفِ لَمْعِ الآلِ
٧	شابَ القَذالُ فآنَ لي أن أرعَوي	لو كنتُ متَّعِظاً بشَيبِ قَذالِ
٨	ولَوَ انّني مُستَبصِر إذْ حَلَّ بي	لَعَلِمْتُ أَنَّ حُلولَهُ تَرحالي
٩	فَنظَرتُ في زادٍ لِدارِ إقامَتي	وسَألتُ رَبّي أَنْ يَحُلَّ عِقالي
١٠	فلكَمْ هَمَمتُ بتَوْبةٍ فَمُنِعْتُها	إذ لم أكن أهْلاً لَها، وبَدا لي
١١	وَيَعِزُّ ذاكَ عَلَيَّ إلاَّ أَنَّنيْ	مُتَقَلِّبٌ في قَبْضَةِ الْمُتَعالي
١٢	ووَصلْتُ دُنيا سَوفَ تَقطَعُ شَأْفَتي	بأُفولِ أنجُمِها وخَسفِ هِلالي
١٣	شَغَلَتْ مُفَتّنَ أَهلِها بِفُتونِها	ومِنَ الْمُحالِ تشاغلٌ بمُحالِ
١٤	لا شيءَ أخسَرُ صَفْقَةً مِنْ عالِمٍ	لَعِبَتْ بهِ الدُّنيا معَ الْجُهّالِ
١٥	فغَدا يفَرِّقُ دينَهُ أَيدي سَبا	ويُزيلُه حِرصاً لِجَمعِ المالِ
١٦	لا خَيْرَ في كَسْبِ الْحَرامِ وقَلّما	يُرْجى الْخَلاصُ لِكاسِبٍ لِحَلالِ!

---

(٥) نَوّن كلمة (أعزل) ضرورةً .

(٦) الغَليل : العطش أو شدته . ونَقَع الماء غلته : روي . والآل : السراب .

(٧) القَذال : جماع مؤخر الرأس . ومعلومٌ أن الشيب ـ عادةً ـ يبدأ بالفَوْدين من جانبي الرأس : فإذا شاب القذال فقد استشرى الشَّيب ، وعَظم الواعظ .

(١٠) بدا له في الأمر بَداء أي نشأ لهُ فيه رأيٌ ، وقال الفرّاء : بدا لي بَداءٌ أي ظهرَ لي رأيٌ آخر .

يقول الشاعر : كم هَممتُ بأن أتوب . فحالت دون ذلك حوائل ، وصرفتني عنها النّفس ، وزُيّن لي غير ماهممت بهِ من الخير .

(١٢) في القاموس : استأصل الله شأفتَهُ أذهبه ... أو أزاله من أصله .

(١٥) في اللسان (سبأ) : وقالوا للمتفرقين : ذهبوا أيدي سَبا ، وأيادي سبا أي متفرّقين .

١٧	مـا إنْ سَمِعتُ بِعائِلٍ تُكوى غَداً	بـالنَّـارِ جَبهَتُـهُ على الإقلالِ
١٨	وإذا أردْتَ صَحيحَ مَن يُكوى بها	فـاقرَأْ عَقيبَـةَ سـورةِ الأَنْفـالِ
١٩	مـا يَثقُـلُ المِيزانُ إلاّ بـامرئٍ	قَـد خَفَّ كاهِلـهُ مِنَ الأَثْقـالِ
٢٠	فَخُذِ الكَفافَ ولا تَكُن ذا فضلَةٍ	فـالفَضْلُ تُسـأَلُ عَنـهُ أَيَّ سُؤالِ
٢١	ودَعِ المَطـارفَ والمَطيَّ لأَهلِها	واقنَـعْ بـأَطمارٍ ولُبسِ نِعـالِ
٢٢	فَهُمُ وأَنتَ وفَقرُنـا وغِنـاهُم	لا يَستَقِرُّ ولا يَـدومُ بِحـالِ
٢٣	وطُفِ البِلادَ لكَي تَرى آثـارَ مَنْ	قَـد كانَ يَملِكُهـا مِنَ الأَقيـالِ

(١٧) عال : افتقر ، والعائل : الفقير .

(١٨) في سورة التوبة [٣٤/٩ ـ ٣٥] : ﴿ الذين يَكنِزون الـذَّهبَ والفضـةَ ولا يُنفقونَها في سبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهم بعـذابٍ أليم . يـومَ يُحمى عليهـا في نـارِ جهنم فَتُكـوى بهـا جِبـاهُهُم وجنـوبُهم وَظُهورهم هَـذا مـا كَنَزتم لأَنفُسِكم فَـذوقوا مـا كُنتم تكنِزون ﴾ . وسورة التـوبـة تعقب سـورة الأنفال .

(١٩) الأثقال : جمع ثقل ، والمقصود به الـذنوب . وقولـه : يَثقُل الميزان أي يوم القيـامـة ، والمعنى قرآني ؛ وفي سورة الأعراف [٨/٧] : ﴿ والوزنُ يومئـذٍ الحق فَمن ثَقُلت موازينُـهُ فـأولئـك هُم المفلحون ﴾ .

(٢٠) عن أبي سعيد الخدري قـال : بينمـا نحن في سفر مع النبيِّ ﷺ إذ جـاءه رجل على راحلـة لـه فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ : « من كان معـه فضل ظهر فليعـد بـه على من لا ظهر لـه . ومن كان لـه فضـل من زاد فليعـد بـه على من لا زاد لـه » فـذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منا في فضل .

(٢١) المطارف : جمع المِطرف (بكسر الميم وضمها) وهو رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام .
ـ أطمار : جمع طِمر : وهو الثوب الخلق البالي .
يريد : اقنع بالثياب البالية واكتف بالمشي (كنّى عن ذلـك بعبـارة لبس النعـال) وأعرِض عن ركوب المطيّ (فعل الأغنياء والوجهاء وغيرهم) .

(٢٣) الأقيال : ـ جمع القيل ـ الملوك .

٢٤	عَصفَتْ بِهم رِيحُ الرَّدى فَذَرَتْهُمُ	ذَروَ الرِّياحِ الهوجِ حِقفَ رِمالِ
٢٥	وتَزَلزَلَتْ بِهِمُ الْمَنابِرُ بَعْدَ ما	ثبتَت وكانوا فَوقَها كَجبالِ
٢٦	واحبِسْ قَلوصَك ساعَةً بطُلولِهِم	واحذَرْ عَليكَ بِها مِنَ الأَغوالِ
٢٧	فَلَكَمْ بِها من أرقَمٍ صِلٍّ وكَمْ	قَدْ كانَ فيها مِن مَهاً وغَزالِ
٢٨	ولَكَم غَدَتْ مِنها وراحَتْ حَلبةٌ	للحَربِ يَقدُمُها أَبو الأشبالِ
٢٩	فَتَقَطَّعَت أَسْبابُهُمْ وتَمزَّقَتْ	ولَقَبْلُ ما كانوا كَنَظْمِ لآلِ
٣٠	وإذا أَتَيْتَ قُبورَهُمْ فاسأَلْهُمُ	عَمَّا لَقوا فيها مِنَ الأَهوالِ
٣١	فسَيُخبِرونَكَ إن فَهِمْتَ بِحالِهِمْ	بعِبارَةٍ كالوَحي لا بِمَقالِ
٣٢	إنّا بِها رَهنٌ إلى يَومِ الْجَزا	بجَرائِمِ الأَقوالِ والأَفعالِ
٣٣	مَنْ لا يُراقِب رَبَّهُ ويَخافُهُ	تَبَّتْ يَداهُ وما لَهُ مِن والِ

---

(٢٤) الحِقف : الْمُعوجّ من الرّمل ، أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف .

(٢٦) الأغوال جمع الغول : وهو كل ماأخذ الإنسان من حيث لا يدري فأهلكه . وتُجمع أيضاً على غيلان .

(٢٧) الأرقم : جمعُها الأراقم وهي الحيّات الرُّقش ، والصِّلّ : الحية التي لاتقبل الرُّقى !

(٣١) في الأساس : أوحى إليه وأومى بمعنى . أي يخبرونك بلسان الحال لا بلسان المقال .

(٣٣) اقتباس من القرآن الكريم من سورة المسد [١/١١١] ومن سورة الرعد [١١/٣] : ﴿ وإذا أرادَ اللّهُ بقومٍ سوءاً فلا مردَّ لهُ وما لهم من دونِه من والٍ ﴾ .

[٦]

وله أيضاً ـ رحمه الله ـ

[في القصيدة حرب شعواء على الدنيا : وقد تجاوبت مفردات الشاعر وعباراته مع حرارة الغضبة على الدنيا .

بدأ الشاعر فتمنى لو يعرف خبيراً « طبّاً » يعالجه من أخطائه وجهله ، حتى إذا صَحَّ واستقامت له الطريقة . عرف : فبصق في وجه الدنيا وصرف نفسه وهمّه عن مغرياتها (١ ـ ٦) ثم التفت الشاعر إلى أحواله وقد بلغ الستين وشاب رأسه وصار على وشك سماع صوت حادي الرحيل الأخير (٧ ـ ٩) وحين يحمله أصحابه إلى الجدث (١٠ ـ ١١) سيكون هناك بين حالين لا ثالث لهما فإما طريق الجنة وإما طريق النار ، وراجع الشاعر أوراقه (١٢ ـ ١٧) وتلوَّم على ما مضى من دهره وهو غافل أو في ظل أيام الصّبا والتصابي ، وتطلع إلى التوبة النصوح التي تكفل له إطلاق سراحه من أسر الدنيا والخطايا (١٨ ـ ١٩) ووقف عند الملاذ الأخير وهو رجاء الرحمة والمغفرة (٢٠)] .

[من الوافر]

١ ألا خَبِرٌ بِمُنتَزِحِ النَّواحي ... أَطِيرُ إليهِ مَنشُورَ الْجَناحِ

٢ فأَسأَلَهُ وأُلطِفَهُ عَساهُ ... سيأْسُو ما بِديني مِنْ جِراحِ

٣ ويَجلُو ما دَجا مِن لَيلِ جَهلي ... بِنُورِ هُدًى كَمُنبَلِجِ الصَّباحِ

(١) خَبِرٌ : مثل خبير : يقال هو خابر وخبير وخَبْر وخَبِر . ونزح وانتزح : بَعُد ، والْمُنتزح : البعيد .

(٢) أسا الجرحَ والمريضَ ، يأسوه ، أسواً وأساً : داواه .

٤ فـأبصُقُ في مُحَيَّا أُمِّ دَفْرٍ وأهجُرُها وأَدفَعُها براحي

٥ وأَصحُو مِن حُمَيَّاها وأسلُو عَفافاً عن جَآذِرِها المِلاحِ

٦ وأَصرِفُ هِمَّتي بالكُلِّ عَنْها إلى دارِ السَّعادةِ والنَّجاحِ

٧ أَفي السِّتِّينِ أهْجَعُ في مَقِيلي وحادي المَوتِ يُوقِظُ للرَّواحِ

٨ وقد نَشَرَ الزَّمانُ لِواءَ شَيبي لِيَطْويني ويَسلُبَني وِشاحِي

٩ وقد سَلَّ الحِمامُ عَلَيَّ نَصلاً سَيَقتُلُني وإن شاكَت سِلاحي

١٠ ويَحمِلُني إلى الأَجداثِ صَحبي إلى ضِيقٍ هُناكَ أَو انفِساحِ

١١ فَأُجزى الخَيرَ إن قدَّمتُ خَيراً وشَرّاً إن جُزيتُ على اجْتراحي

١٢ وها أَنَاذا عَلى عِلْمي بِهَذا بَطيءُ الشَّأوِ في سَنَنَ الصَّلاحِ

١٣ ولي شَأْوٌ بمَيدانِ الخَطايا بَعيدٌ لا يُبارى بالرِّياحِ

---

(٤) استأنف الحديث في هذا البيت ، فقال : فأبصُقُ ، وقد ضبطت الأفعال التالية أيضاً بالرفع . ونصبها أجرى للسياق والمعنى .
ـ أمّ دَفر : الدنيا . والمُحيّا : جماعةُ الوَجه ، أو حُرُّهُ .

(٥) الْحُمَيّا من الكأس : أول سَوْرتها أو شدّتُها أو أَخْذُها بالرأس .
ـ جعل الشاعر الانشغال بالدنيا كالاستغراق في سَوْرة الشراب .
ـ والجآذر جمع : الجؤذر ، وهو في اللغة : ولد البقرة الوحشية ويكثر تشبيه المرأة (الفتاة خصوصاً) بالجؤذر .

(٩) الشوكة : السلاح ، أو حِدّته . ورجل شاك السلاح وشائكه وشوكه وشاكيه : حديده . وشاك : ظهرت شَوكتُه وحدّته .

(١٠) في كشف الخفا ٩٠/٢ : « القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حُفرة من حفر النار » رواه التِرمذي والطبراني عن أبي هريرة ، وكلاهما بهِ مرفوعاً بسندٍ ضعيف .

(١٢) سنن الطريق : نهجه وجهته .

(١٣) الشأو : الشوط ، والمدى ، والغاية والأمد .

١٤	فَلَـــــو أَنّي نَظَرتُ بِعَينِ عَقْلي	إذن لَقَطَعتُ دَهري بـــالنّيـــاحِ
١٥	ولم أَسحَبْ ذُيــولي في التَّصـــابي	ولم أَطرَبْ بِغـــانيَـــةٍ رَداحِ
١٦	وكنتُ اليــومَ أَوَّابـــاً مُنيبـــاً	لَعَلّي أَنْ تفــوزَ غَــداً قِــداحي
١٧	إذا مــا كُنتُ مكبـولَ الْخَطـايــا	وعــانِيَهــا فَمن لي بـــالبَراحِ؟
١٨	فهَــلْ مِن تــوبَــةٍ مِنهــا نَصــوحٍ	تُطيِّرُني وتـــأْخُـــذُ لي سَراحي
١٩	فَيـــا لَهفي إذا جُمِــعَ البَرايـــا	على حَرَبي لَــدَيهِمْ وافتِضــاحي
٢٠	ولَـــــولا أنّني أرجـــــو إلَهيْ	ورَحمَتَـــــهُ يَئِستُ مِنَ الفَـــلاحِ

---

(١٤) في اللسان : « ناحت المرأة تنوح نوحاً ونواحاً ونياحاً ونياحةً ومَناحَةً . وناحت عليه » .
وناحت المرأة على الميت : بكت عليه بجزعٍ وعويل .

(١٥) يقال : امرأة رداح : ضخمةُ الرِدف سمينةُ الأوراك .

(١٦) القِدح : واحد قِداح الْمَيْسِر التي كانوا يَستقسمون بها وفاز قدحه أي ربح .

(١٧) المكبول : اسم المفعول من كَبَله : قيّده بالكبل وهو الحبل الغليظ .
ـ والعاني : الأسير .
ـ والبَراح : المتّسع من الأرض (لا نبات فيه ولا شَجر) .
أراد الأرض التي يَكونُ فيها طليقاً لا مقيّداً أسيراً .

(١٨) في سورة التّحريم [٨/٦٦] : ﴿ يا أيُّها الّذين آمَنوا تُوبوا إلى الله **توبةً** نَصوحاً ﴾ .
والتوبة النصوح : البالغة الخالصة ، لا يُعاود بعدها الذنب .

(١٩) في الأصل : على حِزْبي ، مضبوطة بالشكل ، ورجّحت ما أثبت ؛ والْحَرَب (بفتحتين) وبالرّاء الْمُهملة : الويل والهلاك .

[٧]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ

[عالج الشاعر مشكلة انغماس الإنسان في المعصية أو مقارفته لها (١ ـ ٨) والتفت إلى الدنيا الغَدّارة ووصف غدرها بمن يركن إليها (٩ ـ ١١) ووازن بين المسوّف أُمورَ آخرته والْمُستدرِكِ لها (١٢ ـ ١٣) والتفت الشّاعر ليستجير بالله تعالى ويدعوه دعوةَ إلحاف ليجيره مما يخاف (١٤)] .

[من الكامل]

١ أأَحُورُ عَنْ قَصْدِي وَقَدْ بَرِحَ الْخَفا ... وَوَقَفْتُ مِنْ عُمرِي القَصيرِ عَلى شَفا

٢ وأَرَى شُؤونَ العَينِ تُمسِكُ ماءَها ... ولَقَبْلَ ما حَكَتِ السَّحابَ الوُكَّفا

٣ وأَخالُ ذاكَ لِعَبرةٍ عَرَضَتْ لها ... من قَسوَةٍ في القَلْبِ أَشبَهتِ الصَّفا

٤ ولَقَلَّ لي طُولُ البُكاءِ لِهَفوَتي ... فَلَرُبَّما شَفَعَ البُكاءُ لِمَنْ هَفا

(١) في الأساس : في المثل : بَرِحَ الْخَفاء ؛ أي : وضح الأمر وزالت خَفِيَّته .
ـ والشَّفا من كل شيءٍ حَرْفه ، يقال : هو على شَفا هلاك .

(٢) وَكَف : قَطَر ، وناقَةٌ وَكوفٌ : غزيرة .
ـ وشؤونُ العين : مَجاري الدَّمع منها .

(٣) الصَّفا جمع الصَّفاة : الحجر العريض الأملس ، وقد ورد ذكر قسوة القلب في القرآن الكريم في عدد من الآيات ومنها في سورة الزمر [٣٩/٢٢] : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

(٤) هفا الرجل : سقط وذَلّ .

٥ إنَّ الْمَعــــاصي لا تُقيمُ بِمَنْـــزِلٍ إلاَّ لِتجعَلَ مِنهُ قـاعـاً صَفصَفـا

٦ وَلَـوَ أنّني داوَيتُ مَعطبَ دائِهـا بِمَراهِمِ التَّقـوى لـوافَقتِ الشِّفـا

٧ ولعِفتُ موردَها الْمَشوبَ بِرَنقِها وغَسَلْتُ رَينَ القلْبِ في عَينِ الصَّفا

٨ وهـزَمتُ جَحفَلَ غَيِّها بإنـابَـةٍ وسَلَلْتُ مِن نَـدَمٍ عَليها مُرهَفـا

٩ وهَجرتُ دُنيـا لم تَـزَل غَـدَّارةً بِمُؤمِّليها الْمُمحِضينَ لهـا الـوَفـا

١٠ سحَقتهُمُ ودِيـارَهُم سَحقَ الرَّحـا فعَلَيهِمُ وعَلى دِيـارِهِمِ العَفـا

١١ ولقَـد يُخـافُ عليهمُ من رَبِّهِمْ يَـومَ الْجَـزاءِ النَّـارَ إلاَّ إن عَفـا

١٢ إنَّ الجَـوادَ إذا تَطلَّبَ غـايَـةً بَلَغَ الْمَدى مِنْها وبَـذَّ الْمُقْرِفـا

١٣ شَتَّـانَ بَيْنَ مُشَمِّرٍ لِمَعـادِهِ أبـداً وآخَرَ لا يَـزالُ مُسـوِّفـا

١٤ إنِّي دعَـوتُـكَ مُلحِفـاً لِتُجيرَني مِمَّـا أخـافُ فَـلا تَرُدَّ الْمُلحِفـا

---

(٥) الصَّفصف : المستوي من الأرض لا نبات فيه . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً . فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً ﴾ [طه ١٠٦/٢٠] .

(٧) الرَّنق : ترابٌ في الماء من القذى ونحوه . والرَّين و (الرّان) الغطاء والحجابُ الكثيف ، والصدأ يعلو الشيء الجليّ كالسيف والمرآة ونحوهما ، والدَّنس ، والرَّين : ما غطّى على القلب وركبه من القسوة للذَّنب بعد الذَّنب .

(١٠) عَفا الأثرُ عفاءً : هلك .

(١٢) المقرف من الفَرس وغيره : ما يُداني الْهَجين ؛ والْهُجْنَة من قِبَل الأمّ ، والإقْراف من جهة الأَب . والفَرسُ الْمُقرف دون الأَصيل .

(١٤) ألحف عليه : ألح به .

[٨]

وقال ـ رحمة الله عليه ـ

[تدور القصيدة على استرسال مَنْ بلَغ درجةَ الشَّيخوخة وفي نفسه تعلق بالدنيا وأسبابها . وينبه الشاعر على سخف موقف العجوز المتصابي وأنه لا يليق به إلا الانتهاء عن الغيّ والالتفات إلى التّقوى .

بَدأ الحديث بالكلام على الشَّيب (١) واسترسالَ نَفْسِ الشّاعر مع الصَّبَوات على رغم التقدم في السّن وعلامات المشيب (٢ ـ ٣) ووصف ماأخذ الزمان من ذلك العَجوز (٤ ـ ٧) ومكابرته في طلب ما في الدنيا (٨ ـ ٩) وعدم اعتباره بفقد اللّذات (١٠ ـ ١١) وصرّح بالحديث عن ذاته ويفخر بنفسه التي استجابت له لالا للشّهوات (١٢ ـ ١٤) وختم ببيتين (١٥ ـ ١٦) في خلاص النفس وأنّ التوبة تمحو الذُّنوب] .

[**من الكامل**]

١ الشَّيبُ نَبَّـهَ ذا النُّهَى فَتَنبَّهــا ... ونَهى الْجَهولَ فَما استَفاقَ ولا انتَهى

٢ بَـل زادَ نفسي رغبـةً فتهـافَتَتْ ... تَبغي اللُّهى وكأنْ بِها بَينَ اللَّهـا

٣ فَـإلى متَى أَلْهـو وأفرَحُ بـالْمُنى ... والشَّيخُ أَقبَحُ ما يَكونُ إذا لَهـا

٤ مـا حُسنُـهُ إلاّ التُّقى لا أن يُرَى ... صَبّاً بـأَلْحـاظِ الجـآذرِ والْمَهـا

(٢) اللُّهى : ج لُهية وهي العطية . واللَّها جمع اللَّهاة ، وهي اللحمة الْمُشرفة على الحلق . قلت لعلّ المعنى : أنّ نفسه تتهافت في طلب العَرَض من الحياة الدنيا ، ولكنه هو يحذّرها من الموت الذي يُمكن أن يأتي بغتة (وكأنْ بها) . وقد كرّر الشاعر هذا المعنى في مطلع قصيدة أُخرى ، فقال [القصيدة ذات الرّقم ١٠] :

كأنّي بنفسي وهي في السَّكرات ... تعـالـج أنْ تَرْقى إلى اللَّهـواتِ

٥ أَنَّى يُقاتِلُ وهو مَفلولُ الظُّبا	كابي الْجَوادِ إذا اسْتَقلَّ تَأَوَّها
٦ مَحَقَ الزَّمانُ هِلالَهُ فَكَأَنَّما	أَبْقَى لَهُ مِنهُ عَلى قَدرِ السُّها
٧ فَغَدا حَسِيراً يَشتَهي أَن يَشتَهي	ولكم جَرى طلقَ الْجَموحِ كما اشتهى
٨ إنْ أَنَّ أَوَّاهٌ وأجهَشَ في البُكا	لِذُنوبِهِ ضَحِكَ الظَّلومُ وقَهقَها
٩ لَيسَتْ تُنَهنِهُهُ العِظاتُ ومِثلُهُ	في سِنِّهِ قَدْ آنَ أَن يَتَنَهنَها
١٠ فَقَدَ اللِّداتِ وزادَ غَيّاً بَعدَهُم	هَلاَّ تَيَقَّظَ بَعدَهُمْ وتَنَبَّها؟
١١ يا وَيحَهُ ما بالُهُ لا يَنْتَهي	عَن غَيِّهِ؛ والعُمرُ مِنهُ قد انتَهى؟!
١٢ قد كانَ مِن شِيَمي الدَّها فتَرَكْتُهُ	عِلماً بِأَنَّ مِنَ الدَّها تَركُ الدَّها
١٣ وَلَوَ انَّني أَرْضَى الدَّناءَةَ خُطَّةً	لَوَدِدتُ أَنّي كنتُ أَحمَقَ أبلَها
١٤ فلقَد رأَيتُ البُلهَ قد بَلَغوا الْمَدى	وتَجاوَزوهُ وازدَرَوْا بِأُولي النُّهى

---

(٥) الظّبا : جمع ظبة : الطرف والحد من السيف والسنان والخنجر وما شابه ذلك .
ـ من معاني استقلّ : رفع ، وغضب . وهي في البيتَ تحمل معنى : نهض إلى الأمر .

(٦) محق الزمان هلاله : أي أخفاه (في المحاق) حتى لم يبق منه إلا الأثر القليل .
والمحاق : آخر الشهر (ثلاث ليال من آخر الشهر ، وقيل غير ذلك) .
ـ السُّها : كوكب خفي ، يمتحن به الناسُ أبصارهم .

(٧) الحسير : الذي أدركه التعب والإعياء والكلال . وقال أبو الطيب من قبل :
وشَكِيّتي فقدُ السَّقام لأنّهُ   قد كان لَمّا كان لي أعضاءُ !

(٨) جهشت نفس فلان وأجهشت : نهضت إليه وهَمّ بالبكاء .

(٩) نهنهه عن الأمر : زجره (فتنهنه : أي فانزجر) .

(١٠) اللّدات : جمع لِدَة ، وهو المماثل في الولادة (الْمُماثِلُ في السِّنّ) .

(١٤) المقصود بالأبله هنا : الذي غلب عليه سلامة الصّدر ، وحسن الظن بالناس ؛ وفي الحديث :
أكثر أهل الجنة البُله ؛ أي البله عن أمر الدنيا لقلّة اهتمامهم بها وهم أكياس في أمر الآخرة .
ونُقل عن الزبرقان بن بدر : خير أولادنا الأبْلَهُ العَقُول ، يعني أنه لشدّة حيائه كالأبله وهو =

١٥ مَن ليسَ يَسعَى في الْخَلاصِ لِنَفسِهِ كانت سِعايَتُهُ عليها لا لها !

١٦ إنَّ الذُّنوبَ بِتَوبَةٍ تُمحَى كَما يَمحو سُجودُ السَّهوِ غَفلَةَ مَن سَها

= عقول . وقال أحمد بن حنبل في تفسير (استراح البُله) قال هم الغافلون عن الدنيا وأهلها وفسادهم وغلّهم فإذا جاؤوا إلى الأمر والنهي فهم العقلاء الفقهاء .

(١٥) لم ترد « سعاية » مصدراً لسعى بمعنى : عمل أو مضى أو كسب . (انظر اللّسان : سعى) .

(١٦) السهو في اللغة : نسيانُ الشيء والغفلة عنه .

ـ ومعنى سَها في الصَّلاة : نَسِيَ شيئاً منها .

ـ وسجود السَّهو (كما في معجم لغة الفقهاء : ٢٤٢) سجدتان كسجود الصَّلاة تؤدّيان في آخر الصَّلاة عند حدوث سهو أو شكٍّ في الصَّلاة .

[٩]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه

[ينطلق الشاعر من بلوغ المرء سنّ الستين (وهو يخاطب مجهولاً : (يصحّ أن يكون يخاطب نفسه ويصحّ أيضاً أن يكون الخطاب عامّاً) . فسِنُّ الستين نذيرٌ بالنهاية (١ ـ ٢) والموت يرصد ويترقب فلا معنى للغفلة عنه (٣ ـ ٤) ويكونُ الزّمن قد أثّر في جسد الإنسان وأعضائه (٧) وفي نزعاته ورغباته ، فالزّمن يؤثر في كُلِّ شيء (٨ ـ ١٠) . وفي منزِل الفناء : (الدنيا) رحى الموت تطحنُ كل حيّ (١١ ـ ١٢) ولكن الإنسان ـ في العادة ـ يستغرقُ في غفلته (١٣ ـ ١٤) .

ويلوذ الشاعر أخيراً برحمة الله الواسعة ، والشفاعة المرجوَّة (١٥ ـ ١٨)] .

[من الخفيف]

١ قدْ بلغتَ السِّتِّينَ ويحكَ فاعلَمْ أنَّ ما بَعْدَها عَلَيكَ تَلَوُّمْ

---

(١) في وقوف الشاعر عند سنّ الستين مَلْمَحٌ من أحاديث نبوية . وفي حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : « أعمار أُمّتي مابين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » رواه ابن ماجه ١٤١٥/٢ ، وفي حديث طويل عن أنس بن مالك أنّ الرجل المسلم : « إذا بلغ الستين رزقه الله إنابةً يحبّه عليها .. » مُسند أحمد ٨٩/٢

ـ في القاموس وغيره : تلوَّم على الأمر : تلبث عليه ، وانتظر وتمكث . =

٢ فــإذا مــا انقضَتْ سِنُـوكَ وولّت فصَـلَ الحـاكِمُ القَضــاءَ فــأبرَمْ
٣ أنتَ مِثـلُ السِّجِـلِّ يُنشَرُ حِينـاً ثمَّ يُطـوى من بَعـدِ ذاكَ ويُختَمْ
٤ كيفَ يَلتَـذُّ بــالْحَيـاةِ لَبيبٌ فَـوَّقَتْ نَحـوَهُ الْمَنِيَّـــةُ أسهمْ
٥ ليسَ يَـدْري مَتى يُفـاجيـهِ منهـا صـائِبٌ يَقصِفُ الظُّهُـورَ ويَقصِمْ
٦ مــــالِغُصني ذَوَى وكانَ نَضِيراً ولِظَهري انحَنَى وكانَ مُقَــــوَّمْ
٧ ولِحَــــدّي نَبــــا وكانَ مُبِيراً ولِجَيشي انثَنَى وكانَ عَرَمْرَمْ
٨ ولِـــدَهري أدالَ شَرخَ شَبـــابي بِمَشِيبٍ عِنــدَ الْحِســانِ مُــذَمَّمْ
٩ فــأنــا اليــومَ عَن هــواهُنَّ ســالٍ وقَــــديمــاً بِهِنَّ كُنتُ مُتَيَّمْ !
١٠ لـو بِرَوقِ الـزَّمـانِ يُنطَحُ يـومـاً ركنُ ثَهـلانَ هَــــدَّهُ فَتهــــدَّم
١١ نحنُ في مَنزِلِ الفَنـــــاءِ ولكِن هُــوَ بَـــابٌ إلى البقـــاءِ وسُلَّمْ
١٢ ورَحَى الْمَــوتِ تَستَــدِيرُ عَلَينـــا أبـــداً تَطْحَنُ الْجَمِيـــعَ وتَهشِمْ

= وأنشد ابن عبد البرّ القرطبي (ت ٤٦٣) لرجل لم يُسَمِّه (بهجة المجالس ٢/٢٩٠)

ليت شعري وما انتظـاري وقـد لا ح مشيبٌ بعـــــارضي وقُروني
يـا ابن ستين مـا اعتــذارك من بعـ ـــدِ بلـوغ الأشــدّ والستين ؟!

(٣) السجلّ : الكتاب وفي البيت اقتباسٌ من الأُسلوب القرآني .
في سورة الأنبياء [٢١/١٠٤] : ﴿ يومَ نَطوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ ﴾ .

(٤) الفُوق : موضع الوتر من السهم ؛ وفوّق السهم : جعل الوتر في فُوقـه عنـد الرمي (انظر ص ٣٣) .

(٧) العرمرم : الكثير من كل شيء ، أو الشديد من كل شيء ، ومنه : جيش عرمرم .

(٨) الإدالة : الغلبة ، وقوله : أدال شرخ شبـابي بمشيب ، المقصود : أنـه ذهب بـالشبـاب وعوض منه مشيبا .

(١٠) الروق (روق الثور) : القرن . وثهلان : جبل .

(١١) منزل الفناء : كناية عن الحياة الدنيا .

١٣ وأنـــا مُـوقنٌ بــــذاكَ عَليمٌ وفِعَـــالي فِعــالُ مَنْ لَيسَ يَعلَمْ
١٤ وكـــذا أمتَطِي الهُـوَينـا إلى أن أتَــوَفّى فَعِنْــدَ ذلِــكَ أنْــدَمْ!
١٥ فَعَسَى مَن لَـــــهُ أُعَفِّرُ وَجهي سَيَرَى فَــاقتِي إلَيـــهِ فَيَرحَمْ
١٦ فَشَفِيعي إليــــه: حُسنُ ظُنــوني ورجــــائِي لَـــهُ، وأنِّيَ مُسلِمْ
١٧ ولَــهُ الْحَمــدُ أنْ هَــدَانِي لِهــذا عَـــدَدَ القَطرِ مـــا الْحَمَامُ تَرنَّمْ
١٨ وإلَيـــهِ ضَراعَتِي وَابْتِهَـــالِي في مُعَـــافــاةِ شَيبَتِي مِن جَهَنَّمْ

---

(١٤) معنى الهوينى في اللغة : التؤدة والرفق والسكينة والوقار ، ويريد الشاعر أن الإنسان طويل الأمل ، فهو يتثاقل في طلب الآخرة ويرجئ ويؤجل ويُسَوِّف ، غفلةً منهُ واسترسالاً .

(١٨) في كشف الخفا (١/٢٤٤) الحديث : « إن اللهَ يستحي أنْ يُعذِّبَ شيبةً شابت في الإسلام » . هكذا ذكره الغزالي في الدرة الفاخرة . ورواه السيوطي في الجامع الكبير عن ابن النجار بسند ضعيف بلفظين آخرين أحدهما : « إن الله ليستحي من عبده وأمته يشيبان في الإسلام يعذبها » .

[١٠]

وقال ـ رحمه الله ـ يندب نفسه ويُذَكِّرها الْمَعاد

[الخيط الناظم لهذه القصيدة هو ذكر الموت وما يكون معه وبعده ، وذكر أحوال القبر ويوم الْمَعاد .

وهي قصيدة تُشرِف بالقارئ على أهوال الموت ، وتذكّره بأحوال الآخرة .

يصوّر الإلبيري في قصيدته آخر ساعات ابن آدم في الدنيا وأول ساعاته في الآخرة ، ويصف ما يكون عليه حال الجسد بعد الموت (١ ـ ٤) وحال القبر ، وصاحبه هو في ضيق أو في فُسحة (٥ ـ ١٢) ويعترضُ بذكر ذنوبه ويضخّمها على عادته (١٣ ـ ١٦) ويذكر أحوال الموت والميّت (١٧ ـ ٢١) ويذكر النعش خاصّة (٢٢ ـ ٢٣) ويميّز بين صالح الأعمال وسيّئها (٢٤ ـ ٢٩) ويعود إلى الموت ، ثم يقيم الشاعر حواراً مع أصحابه ويسألهم أن يرفقوا به عند وفاته (٣٠ ـ ٣٨) . ويرجع إلى الله تعالى طالباً العفو ، ساجداً له سجود تعظيم ، مقدّماً بين يدي لقاء الآخرة طاعته واستغفاره] .

[من الطويل]

١ كأنّي بِنَفْسِي وهيَ في السَّكراتِ ‍ ‍ ‍ ‍ تُعالِجُ أن تَرقَى إلى اللَّهَواتِ

---

(١) السَّكرات هي سكَراتُ الْمَوت ، وقد ورَد ذِكرُ (سكرة الموت) في القرآن الكريم في سورة ق [١٩/٥٠] ﴿ وجَاءَتْ سكرةُ الْمَوتِ بالْحَقِّ .. ﴾ أي غشيته وشدّته .

٢	وقـــد زُمَّ رَحلي واستَقلَّتْ رِكائِبي	وقَـد آذَنتني بـالرَّحيـلِ حُـداتي
٣	إلى مَنزلٍ فيـــهِ عَـــذابٌ ورحمـــةٌ	وكَم فيـهِ مِن زَجرٍ لَنَـا وعِظَـاتِ
٤	ومن أعيُنٍ سَـالَتْ على وَجَنـاتِهـا	ومِن أوجُـــهٍ في التُّراب مُنعَفِراتِ
٥	ومن واردٍ فيـــهِ عَلَى مـــا يَسُرُّهُ	ومِن واردٍ فيـــــهِ عَلى الْحَسَراتِ
٦	ومِن عـاثِرٍ مـاإن يُقَـالُ لـه: لَعـاً	على مـاعَهِـدنَـا قَبـلُ في العَثَراتِ
٧	ومِنْ مَلِـــكٍ كانَ السُّرُورُ مِهَــادَهُ	مـع الآنِسَـــاتِ الْخُرَّدِ الْخَفِراتِ
٨	غَدا لا يَذُودُ الـدُّودَ عَن حُرِّ وَجهِـهِ	وكانَ يَــذُودُ الأُسـدَ في الأَجَماتِ
٩	وعُـوِّضَ أُنْسـاً مِنْ ظِبَـاءِ كِنـاسِـهِ	وأرآمِـــهِ بـــالرُّقْشِ والْحَشَراتِ

وقول الشاعر : « تعـالج أن ترقى إلى اللهوات » يعني الرّوح . واللهوات جمع اللهـاة : وهي أقصى الفم ، واللحمـة المشرفـة على الحلق ، والمقصود مخرج النفس ! والمعنى قرآني مقتبس من سـورة القيـامـة [٢٦/٧٥] ﴿ كـلا إذا بَلغتِ التَّراقي ﴾ . أي بلغت الرُّوح أعـالي الصَّـدْر وحشرجت .

(٢) زمّ الشيء : شدّه .

والركائب جمع الركاب : وهي الإبل يُسَارُ عليها ، ومعنى استقلّت : سـارت ، يقـال : استقل القوم : أي ذهبوا واحتملوا سائرين وارتحلوا ، والحداة : جمع الحادي .

(٣) سبـق الأثر المشهـور : « القبر روضـة من ريـاض الجنـة أو حفرة ... إلـخ » راجـع فهرس الأحاديث النبوية .

(٦) في الأساس : لعاً لك : دعاء بالانتعاش .

(٧) الخرد : جمع خريـدة : وهي البِكر أو الْخَفِرة ، الطـويلـة السكـوت ، الخـافضـة الصـوت ، المتسترة .

(٩) أرآم جمع رئم : الظبي الخالص البياض . والرُّقش جمع الرقشاء : وهي الحيـة ، وسميت بـذلـك لرقشة جلدها .

١٠	وصـارَ بِبَطنِ الأرْضِ يَلتَحِفُ الثَّرى	وكانَ يَجُرُّ الـــــوَشْيَ وَالْحِبَرَاتِ
١١	وَلَم تُغْنِــهِ أنصـــارُهُ وَجُنــودُهُ	ولَمْ تحمِــهِ بِــالبِيضِ والأسَـلاتِ
١٢	ومِمَّـا شَجَـاني ـ والشُّجـونُ كَثِيرَةٌ ـ	ذُنــوبٌ عِظـــامٌ أسْبَلَت عَبَراتي
١٣	وأقلَقَنِي أنِّي أمُــوتُ مُفَرِّطـــاً	عَلَى أنّني خُلِّفْتُ بَعْــدَ لِــدَاتي
١٤	وأغفَلتُ أمرِي بَعــدَهُم مُتَثَبِّطــاً	فَيــا عَجَبــاً مِنّي ومِن غَفَـلاتي
١٥	إلى اللهِ أشكُـو جَهـلَ نَفسِي فـإنَّهـا	تَمِيــلُ إلى الرَّاحــاتِ والشَّهـواتِ
١٦	ويـا رُبَّ خِـلٍّ كُنتُ ذا صِلَةٍ لَـهُ	يَرَى أنَّ دَفني مِن أَجَـلِّ صِـلاتي
١٧	وكنتُ لَـهُ أُنســاً وشمســاً مُنيرةً	فـــأَفرَدَني في وَحشَـــةِ الظُّلُماتِ
١٨	سأضْرِبُ فُسْطاطي على عَسْكَرِ البِلى	وأرْكُــز فيــهِ للنُّــزولِ قَنــاتي
١٩	وأركبُ ظَهراً لا يَــؤُوبُ براكِبٍ	ولا يُمتطَى إلاَّ إلى الْهَلَكاتِ

---

(١٠) الحبرات جمع الحبرة : وهي ثوبٌ من قطن أو كتان مخطط كان يُصنع باليمن .

(١١) البيض : السُّيوف ، والأسلات جمع الأسَلة : وهي من النصل مستدقّه .
والأسَل : الرّماح الطوال ، (والمفردة أسَلة) .

(١٤) يُقال في الفعل : ثَبَّطَهُ (وثبَطَه بالتخفيف) أي ريَّثه ، وثبّته ، وشغله .

(١٦) للطَّبراني عن ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً : « إذا مـات أحـدكم فلا تحبسوه وأسرعوا بـه إلى قبره » . وفي لفـظٍ لـه : « من مـات في بكرةٍ فـلا تقيلوه » (أي لا تتركـوه إلى وقت القائلة : نصف النهار) .
وأورد العجلوني أقوالاً أُخر في إيضاح العبارة المشهور « إكرام الميت دفنه » .
ـ وقول الشاعر : (كنت ذا صلةٍ له) أي كان يصله ويبرّه ويحسن إليه .

(١٨) الفُسطاط : مجتمع أهل المنطقة ، والسُّرادق من الأبنيـة ، والشـاعر يشير إلى الرحلـة الأخيرة إلى القبر .

(١٩) الإشارة واضحة إلى النَّعش .

٢٠ وليسَ يُرى إلاّ بِساحَةِ ظاعنٍ إلى مَصرَعِ الفَرْحاتِ والتَّرَحاتِ

٢١ يُسَيِّرُ أدنى النَّاسِ سَيراً كسَيرِهِ بِأرفعِ مَنعِيٍّ مِنَ السَّرَواتِ

٢٢ فطوراً تراهُ يَحمِلُ الشُّمَّ والرُّبا وَطَوراً تراهُ يَحمِلُ الْحَصَياتِ

٢٣ وَرُبَّ حَصاةٍ قَدرُها فوقَ يَذْبُلٍ كمقبولِ ما يُرمَى مِنَ الْجَمَراتِ

٢٤ وكُلُّ صَغيرٍ كانَ للهِ خالِصاً يُرَبِّي عَلى ماجاءَ في الصَّدَقاتِ

٢٥ وكُلُّ كَبيرٍ لا يَكونُ لِوَجهِهِ فَمِثلُ رَمادٍ طارَ في الْهَبَواتِ

٢٦ ولكنَّهُ يُرجى لِمَنْ ماتَ مُحسِناً ويُخشى على مَن ماتَ في غَمراتِ

٢٧ وما اليومَ يُمتازُ التَّفاضُلُ بَينَهُم ولكنْ غَداً يُمتازُ في الدَّرَجاتِ

٢٨ إذا رُوِّعَ الخاطي وطارَ فُؤادُهُ وأُفرِخَ رَوْعُ البَرِّ في الغُرُفاتِ

---

(٢١) السَّروات جمع السراة ؛ والسَّرْو : مروءة في شرف .

(٢٣) يَذْبُل : جبل من جبال بلاد العرب .

ـ والإشارة واضحة إلى رمي الجمار في منى .

(٢٤) في التنزيل العزيز : ﴿ يمحقُ اللهُ الرِّبا ويُربي الصَّدقات واللهُ لا يُحبُّ كلَّ كفارٍ أثيم ﴾ [البقرة : ٢٧٦/٢] .

قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (٣٦٢/٣) : « ويربي الصدقات : أي ينَميها بالبركة في الدنيا ويكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة . وفي صحيح مسلم : إن صدقة أحدكم لتقع في يد الله فيربّيها له كما يُربّي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجيء يوم القيامة وإن اللقمة لعلى قدر أُحد » .

(٢٥) الهبوات : جمع الْهَبْوَة : الغبرة .

(٢٦) غمرة الشيء : شدته ومزدحمه .

(٢٧) امتاز : انفرد .

(٢٨) في الأساس : من المجاز أفرخ روعك : أي خلا قلبك من الهم (خلو البيضة من الفرخ) . والمراد في أفرخ روعك (بفتح الراء) زوال ما يتوقعه المرتاع . وإذا زال ذلك انقلب الروعُ أمناً .

٢٩ وما يَعرِفُ الإنسانُ أينَ وَفاتُهُ ... أَفي البَرِّ أم في البَحرِ أم بِفَلاةِ

٣٠ فَيا إخوَتي مَهما شَهِدتُم جَنازَتي ... فَقوموا لِرَبِّي واسْأَلوهُ نَجاتي

٣١ وجِدُّوا ابتِهالاً في الدُّعاءِ وأَخلِصوا ... لَعَلَّ إلَهي يَقْبَلُ الدَّعَواتِ

٣٢ وَقولوا جَميلاً إن عَلِمْتُمْ خِلافَهُ ... وأَغضُوا على ما كانَ مِن هَفَواتي

٣٣ ولا تَصِفوني بالّذي أنا أَهْلُهُ ... فَأَشْقى وحَلُّوني بِخَيْرِ صِفاتِ

٣٤ ولا تَتَناسَوْني فَقِدماً ذَكَرتُكُمْ ... وَواصَلْتُكُم بالبِرِّ طولَ حَياتي

٣٥ وبالرَّغمِ فارَقْتُ الأَحِبَّةِ منكُمُ ... وَلَمَّا تُفارِقْني بِكُمْ زَفَراتي

٣٦ وإن كُنتُ مَيْتاً بَينَ أَيديكُم لَقًى ... فَروحيَ حَيٌّ سامِعٌ لِنُعاتي

٣٧ أُناجيكُمُ وَحْياً وإنْ كنتُ صامِتاً ... أَلا كُلُّكُمْ يَوماً إليَّ سَياتي

٣٨ وَلَيسَ يَقومُ الجِسمُ إلاَّ بِروحِهِ ... هو القُطبُ والأَعضاءُ كالأَدَواتِ

٣٩ وَلا بُدَّ يَوْماً أَن يَحورَ بِعَينِهِ ... لِيُجزَى عَلى الطَّاعاتِ والتَّبِعاتِ

٤٠ وإلاَّ أَكُن أَهْلاً لِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ ... فَرَبِّيَ أَهلُ الفَضلِ والرَّحَماتِ

٤١ فَما زِلْتُ أَرْجو عَفوَهُ وجِنانَهُ ... وَأَحْمَدُهُ في اليُسْرِ والأَزَماتِ

---

(٢٩) المعنى من قوله تعالى : ﴿ وما تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أَرضٍ تَموت ﴾ [لقمان ٣٤/٣١] .

(٣٠) ترد (مهما) في استعمال الأندلسيين لمعنى الزمان والشرط أو تخلص للظرفية الزمانية ـ وقال ابن مالك : إن معنى الزمان والشرط مما أهمله النحويون وأنكره عليه ابن هشام في المغني (٣٦٨/١) والراجح ماقاله ابن مالك . وتنظر المناقشة في المغني .

(٣٢) في حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » (الفتح الكبير ١٦٣/١) .

(٣٦) رجل لقى وملقى بمعنى . (في الخير والشر) .

(٣٧) الوحي هنا : الرمز والإشارة : أي هو يناجيهم بلا كلام (بالعِبْرَة) .

(٣٩) الحور : الرجوع .

٤٢ وأَسْجـدُ تَعْظيمـاً لَـهُ وتَـذَلُّـلاً   وأَعبُـدُهُ في الْجَهرِ والْخَلَـواتِ

٤٣ وَلستُ بِمُمتَنٍّ عَلَيـهِ بِطـاعَتي   لَـهُ الْمَنُّ في التَّيسِيرِ للْحَسَنـاتِ

---

(٤٣) في سورة الحجرات [٥٠/١٧] : ﴿ يمنّونَ عليكَ أَنْ أَسلموا ، قُلْ : لاتمنّوا عليَّ إسلامكم بل اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هَداكُم للإيمانِ إن كنتم صادقين ﴾ .

[١١]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ يعرِّض برجل من الفقهاء كان يطلب الكيمياء(☆)

[المقصود بطلب الكيمياء في هذه القصيدة محاولات القدماء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة بمعالجات معقدة ذات تكاليف : كانوا يُنفقون فيها الوقت والمال بلا جدوى . وقد عَدّ الشاعر مثل هذا العمل مجرّد شهوة لتكثير المال والانشغال بالعَرَض ؛ وجعل هذا مَدْخَلاً إلى قصيدته التحذيريّة من شهوات النفس .

يبدأ بالحديث عن النفس وميلها إلى (الباطل) وإلهائها الإنسان بلذّة عارضة (١ ـ ٣) ويلتفتُ باحثاً عن الحازم العالم العامل (٤ ـ ٧) واصفاً الورع المتّقي (٨ ـ ٩) ويظهر الشاعر باحثاً عمّن يستأهل النصيحة الغالية من رجل يقظ واع (١٠ ـ ١٤) ويخاطب الذي ألهته الدُّنيا وغفل عن الآخرة ، ويقدّم له الأدلّة العقليّة المتعدّدة على صنع الصانع المدبّر (١٥ ـ ٢١) . وهي أدلة يهتدي بها الفاضل المخلص ولا تغيب عن قلب المؤمن العاقل (٢٢ ـ ٢٣)] .

(☆) الكيمياء : « علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصة جديدة إليها . قال : وذكر الصفدي الاختلاف في شأنه بين مُقر لهذا العلم ومنكر له .. وذكر يعقوب الكندي في رسالته تَعَذُّرَ فعل الناس لِما انفردت الطبيعةُ بفعله ، وخدع أهل هذه الصّناعة وحيلهم . وأبطل دعوى الذين يدّعون صنعَة الذهب والفضة » . (كشف الظنون : ١٥٢٦/٢ ـ ١٥٣٣) .

[من السريع]

١	مــاأَمْيَــلَ النَّفْسَ إلى البَــاطِــلِ	وأَهْــوَنَ الــدُّنيــا عَلَى العــاقِــلِ
٢	تُرْضِي الفَتَى في عــاجِــلٍ شَهْــوَةٌ	لــوخَسِرَ الْجَنَّـــــةَ في الآجِــلِ
٣	يَبيــعُ مــــا يَبْقَى بِمَــــا يَنْقَضِي	فِعْلَ السَّفيــهِ الأحْمَقِ الجــاهِـلِ
٤	يــامَنْ رأى لِي واصِــلاً مُرْشِـــداً	وإنَّنِي أكْلَفُ بِـــالـــواصِـــلِ
٥	يــامَنْ رأى لِي عــالِماً عــامِــلاً	فــألْــزَم الْخِــدْمَـــةَ للعــامِــلِ
٦	أمْ مَنْ رأى لي عــالِماً ســاكِتـــاً	وعَقْلُـــهُ في عـــالَمٍ جـــائـــلِ
٧	يَسْرَحُ في زَهْرِ رِيــــاضِ النُّهى	ليسَتْ كَرَوْضٍ مَــاحِــلٍ ذابِــلِ
٨	يــــارُبَّ قَلبٍ كَجَنــــاحٍ هَفَتْ	قــد غــابَ في بَحرٍ بِلا ســاحِــلِ
٩	يُصَرِّفُ الْخَطرةَ مَـــذعُـــورةً	مِمَّـــا يَرى مِن مَنظَرٍ هـــائِـــلِ

(١) في كتاب الأغاني (١١٦/٢٢) : كان معاوية يتمثل كثيراً إذا اجتمع الناس في مجلسه بهذا الشعر :

إنّـــا إذا مـــالت دواعي الهـوى ... وأنصتَ السَّـــامعُ للقـــائـــل

...(الأبيات) .

وكان عبد الملك بن مروان إذا جلسَ للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه يُنشده :

إنّـــا إذا مـــالت دواعي الهـوى ... وأنصت الســـامـع للقـــائـــل

واصطرع القـومُ بـــألبـــابهم ... نقضي بحكمٍ عـــادلٍ فـــاصـــلِ

لانجعـل البـــاطـل حقّـــاً ولا ... نُلـطّ دون الحـقّ بـالبـــاطـل

نخـــافُ أن تسفـــهَ أحـلامُنـــا ... فتخمـلَ الـدهرَ مـع الخـــامـل

ثم يجتهد عبد الملك في الحقّ بين الخصمَيْن .

(٣) السَّفيه : من يبذر أمواله فيما لا ينبغي .

(٤) كَلِف بالشيء : أُولع به ولهج .

(٨) هفا : أسرع ؛ وهفا الطّائر خفق بجناحيه . قال في اللسان : « جَمْعُه أجنحة وأجنح ، حكى =

١٠ آهٍ لِسِرٍّ صُنْتُــــــهُ لَم أجِــــدْ | خَلْفاً لَــهُ قَــطُّ بِمُسْتَــاهِــلِ
١١ هَــل يَقُــــظٌ يَســـأَلُني عَلَّني | أكشِفُــهُ لِليَقُــظِ السَّـــائِــلِ
١٢ قَــد يَرحَــلُ المرءُ لِمَطلُــوبِــهِ | والسَّببُ الْمَطلُــوبُ في الرَّاحِــلِ
١٣ لَــو شُغِــلَ الْمَرءُ بِتَركيبِـــهِ | كانَ بِـــهِ في شُغُــلٍ شَـــاغِــلِ
١٤ وعــــايَنَ الحِكْمَــــةَ مَجْمُـوعَــةً | مَــاثِلَــةً فِي هَيكَــلٍ مــاثِــلِ
١٥ يـــاأيهـــا الغــافِــلُ عن نفســهِ | وَيْــكَ أفِــقْ من سِنَــةِ الغَــافِــلِ
١٦ وانظُرْ إلى الطَّـــاعَـــةِ مَشهُــورَةً | في الفَلَــكِ الصَّــاعِــدِ والنَّـــازِلِ
١٧ وَالْحَـــظْ بِعَيْنَيْــكَ أديمَ السَّمَـــا | مِن طَـــالِــعٍ فيهــا ومِن آفِــلِ
١٨ كُـــلٌّ عَلى مَسلَكِـــــهِ لا يُرَى | عَن ذلِــكَ الْمَسلَــكِ بِــالمــائِــلِ
١٩ لَـــودَبَّرَتْ أنفُسَهَـــــا لم تَغِب | واطَّلَــعَ النــاقِصُ كالكَــامِــلِ
٢٠ وانظُرْ إلى الْمُـزْنَــةِ مَشحُــونَــةً | مُثقَلَـــــةَ الكاهِــلِ كالبــــازِلِ
٢١ تَحِنُّ مِن شَـــوقٍ إلى وَقفَـــــةٍ | أو خَطرَةٍ بِــالبَلَــدِ المــاحِــلِ
٢٢ يــالَــكَ بُستَـــانَ عُقُــولٍ بَــدا | لِعينِ قَلبِ الْمُـؤمنِ العَــــاقِــلِ
٢٣ فَسِرٌّ هــــذا الشَّـــأنِ لا يَنجَلي | إلاَّ لِعَبــــدٍ مُخلِصٍ فـــاضِــلِ

= الأخيرة ابنُ جنّي وقال : كسّروا الجناح ـ وهو مذكر ـ على أفعُل وهو من تكسير المؤنث لأنهم ذهبوا بالتكسير إلى الرِّيشة » . وقوله : « كسّروا » أي جمعوا الكلمة جمع تكسير .

(١٠) آه أوها ، وأوّه تأويهاً : قالها ؛ (كلمة آه) .

(١١) يقال رجل يقظ ، بضم القاف وكسرها .

(١٤) كذا رُتبت الأبيات في الأصل ، وفي الروض المعطار . ويتسلسل الشعر منسوقاً لو تقدّم البيتُ الخامس عشر على سابقه . وعندها يكون (عاينْ) فعل أمر .

(٢) المزنة : تجمع على المزن . وهو السّحاب ذوالماء .

ـ والبازل : البعير الذي بلغ تسع سنين (وأصله من بزل البعير أي فطر نابه وطلع) .

[١٢]

وله أيضاً ـ رضي الله عنه ـ:

[تتسع رقعة الْخِطـاب في هـذه القصيـدة القصيرة ؛ فـالْمُخَـاطب منها هو الإنسان ؛ وهو مـدعوٌّ إلى التفكير في آلاء الله تعـالى في خلقـه ، وهي آيات تهدي إلى الحقّ والْهُدى (١ ـ ٣) .
ويُثني الشاعر على الأكياس (وهم الذين اهتدوا وآمنوا) الذين ساحوا في حبّ الله تعـالى ، وجـالت عقـولهم في آلائـه ، وتـدبَّروا عجـائب الخلـق وركبوا بحار الفهم فوصلوا إلى شاطئ السّلامة (٤ ـ ٧)] .

[من الكامل]

١	أنتَ الْمُخَـاطَبُ أيُّهـا الإنْســانُ	فـأصِـخْ إليَّ يَلُـحْ لَـكَ البُرهـانُ
٢	أُودِعْتَ مــالَـوقُلتَــهُ قُلتَ لي:	«هــذا لعَمرُكَ كلُّـهُ هَــذَيــانُ»
٣	فانظُر بِعَقْلِكَ مِن بَنـانِـكَ واعتَبِر	إتقَــانَ صَنْعَتِــهِ فَثَمَّ الشَّــانُ!
٤	للهِ أكيَــاسٌ جَفَــوا أوطــانَهُمْ	فــالأرضُ أجْمَعُهــا لَهُم أوطــانُ
٥	جــالَت عُقُــولهم مَجــالَ تَفكُّرٍ	وتَــدَبُّرٍ فَبَــدا لَهــا الكِتمــانُ
٦	ركِبَت بِحَـارَ الفَهمِ في فَلَـكِ النُّهى	وجَرى بِهـا الإخـلاص والإيمـانُ
٧	فَرَسَت بِهِم لَمّـا أتـوا مَحبُـوبَهُمْ	مَرسًى لَهُم فِيـــهِ غِنًى وأمـــانُ

(١) أصاخَ : استمعَ وأنصتَ .

(٢) أي أُودع في الإنسان من الأسرار وعجائب الخلق والتقدير ما يُذْهِلُ العُقُول .

[١٣]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ وكان دَخَلَ عليه ابنُ أبي رجاء(☆) في علّته التي توفي فيها ، فعذَله على رداءة مسكنه ، فقال ـ وهو آخر شعر قاله ـ :

[أثارت عبارة الوزير العائد شجون الشاعر الزاهد ، الذي عاش حياته يدعو إلى أن يكتفي الإنسان من متاع الدنيا بما هو ضروري وأن يُعرض عن كل زيادة على ذلك .

يبدأ الشّاعر بحديث داره المتواضعة ورضاه بها ، ويستغرب أن يطلب الإنسان فوق دارٍ توفّر الوقاية والحماية والسّتر . وهو يريد ألاّ يغالي الناس في البنيان ، ولا يجعلوا ذلك هَمّهم الطويل (١ ـ ٥) ويذكّر الشاعرُ السامع والقارئ بالقَبْر واعظاً صارخاً ـ وإن كان من تُراب وصخر ـ ويحذّر المسترسلين وراء متع الحياة الزائلة من الأثاث الفاخر والرّياش والقصور والنساء (٦ ـ ١١) ، ويتحدث بلسان القبر واعظاً منبّهاً (١٢ ـ ١٣)] .

(☆) ابن أبي رجاء : الوزير أبو خالد هاشم بن ابي رجاء الإلبيري . قال لسان الدين : « كان من عظماء أهل إلبيرة وسادتهم ، وهو الذي عاد الفقيه الزاهد أبا إسحاق بن مسعود الإلبيري في مرضه وعذله على رداءة مسكنه ، وقال له : لوسكنت داراً خيراً من هذه لكان أولى لك ، فأجابه رحمه الله بقوله :

« قالوا ألا تستجيد بيتا ... القصيدة » .

(الإحاطة : ٣١٧/٤ ، ونفح الطيب : ٤٩١/٣) .

[من مخلّع البسيط]

١	قـــالُـوا ألا تَسْتَجِـــدُّ بَيْتـــاً	تَعْجَبُ مِنْ حُسنِــــهِ البُيــوتْ
٢	فَقُلتُ مـــــاذلِكُمْ صَـــوابٌ	حَفشٌ كَثِيرٌ لِمَن يَمُـــــوتْ
٣	لــولا شِتـــاءٌ ولَفْــحُ قَيـــظٍ	وخـوفُ لِصٍ وحِفـــظُ قُــوتْ
٤	ونِســــــــوَةٌ يبتَغِينَ سِتْراً	بَنيتُ بُنيَـــــانَ عَنكَبُـــوتْ
٥	وأيُّ معنى لِحُسنِ مَغنى	لَيْسَ لأربـــابِـــهِ ثُبُـوتْ
٦	مـــاأوعــظَ القَبرَ لـوقَبِلنَـــا	مَـوعِظَــةَ النَّــاطِـقِ الصَّموتْ
٧	يُـوحِي إلى مُمتَطِي الْحَشَـايــا	مـــالَـــكَ عَنْ مَضجَعي عَمِيْت ؟
٨	نَسِيتَ يَــومِي وطُــولَ نَــومِي	وسَـــوفَ تُنسَى كَمَـــا نَسِيتْ
٩	وشِـــدتَ يـــاهــادِمي قُصـوراً	نَعمتَ فِيهِنَّ كَيفَ شِيتْ
١٠	مُعتَنِقـــاً لِلْحِسَـــانِ فِيهــا	مُستَنشِقـــاً مِسْكَهــا الفَتِيتْ
١١	تَسحَبُ ذَيـلَ الصِّبـــا وتَلهُــو	بـــآنِســـاتٍ يَقُلْنَ : هِيْتْ

(١) في ترجمة سفيان بن عيينة في حلية الأولياء [٢٧٣/٧] :
« وقيل له (أي للمسيح عليه السلام) : ألا تتزوج ؟ قال : أتزوّجُ امرأةً تموت ؟ وقيل لـه : ألا تَبني بيتاً ؟ قال : إنّي على طريق السّبيل ! » .

(٢) الحفشُ : البيت الصّغير جداً .

(٤) يضرب المثل بوهاء نسيج العنكبوت ، قال تعالى في سورة العنكبوت [٤١/٢٩] : ﴿ مثلُ الذين اتَّخذوا من دونِ اللهِ أولياء كمثلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتاً وإنَّ أوهنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يَعلمونَ ﴾ .

(١٠) الفتيت وزن فعيل من فتّ . والمسك إذا فتّ كان أعبق لرائحته وأبعد نشرا .

(١١) هيت لك (مثلَّثة الآخر) ـ وقد يُكسر أوله ـ أي : هَلمَّ .

١٢ فـــاذكُرْ مِهـــادِي إلى التَّنَـــادي وامهَـــدْ لَـــهُ قبـــلَ أن يَفـــوتْ
١٣ فَعَن قَرِيبٍ تَكـــــــــونُ طُعْمِي سَخِطتَ يـــاصـــاحِ أم رَضيتْ

(١٢) الْمِهَاد والمهْد ـ في الأصل ـ الموضع يُهَيَّأ للصبي ويُوطَّأ لينام فيه ، ومن معاني الْمِهاد : الأرض أو ماانخفض منها في سهولة واستواء .

(١٣) الطُّعم (بضم الطّاء) الطّعامُ ، وكُلّ ماأُكل ؛ أي يقول له القَبْرُ : ستكون طعاماً للـدّود حين تنزل فيّ .

[١٤]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ:

[يذكر الشاعر عزلته عن الناس ويعلل ذلك بأنه يقصد تجنب ما يورد موارد العقاب (١) ويعلن خصام نفسه الأمّارة العاصية (٢) ويعاتبها صراحة ويزجرها وينبهها إلى عوامل تدعو إلى الارتداع (٣ ـ ٤) ويقرر أنه استطاع زجرها وردعها على أنها لم تسلم من الاضطراب (٥) ويذكر تسويفها ومواعيدها (٦ ـ ٧) وخداعها أيضاً (٨) ووقوفه لها بالمرصاد (٩)] .

[من المتقارب]

١ أَلِفْتُ العُقَابَ حِذَارَ العِقَابِ وعِفْتُ المَوارِدَ خَوفَ الذِّئَابِ

(١) العُقاب (بضم العَيْن على هيئة اسم الطائر الجارح المعروف) اسم حِصن قريب من مدينة غرْناطة . وسمّاه حصناً الحجاريُّ في (المسهب) كما نقل عنه ابن سعيد في المغرب (١٣٣/٢) ، وقد ذكره ابن سعيد عند حديثه عن كورة إلبيرة وترجم لأبي إسحاق الإلبيري باعتباره منتسباً في الوطن إليه .
وقال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة (١٥٥/٢) إنّ رابطة العقاب « متعبد الشيخ وليّ الله أبي إسحاق الإلبيري رحمه الله » فذكره باسم رابطة والرابطة والرّباط : موضع يكون فيه العبّاد والزّهاد وأصله موضع ينقطع فيه المجاهدون ، ثم توسّعوا في دلالته ووظيفته .
والعُقاب غير العِقاب (بكسر العين على هيئة معنى المعاقبة) ، وهو موضع جرت فيه موقعة

٢	وأبغَضْتُ نَفسِي لعِصيـــانِهـــا	وعـــاتَبتُهـــا بِـــأشَـــدِّ العِتَـــابِ
٣	وقلتُ لهــا بــانَ عَنْــكِ الصِّبــا	وَجَرَّدَكِ الشَّيْبُ ثــوبَ الشَّبـــابِ
٤	ومـــا بَعْـــدَ ذلِـــكَ إلاَّ البلى	وسُكْنى القُبـورِ وَهَـوْلُ الْحِسَـابِ
٥	فـــأيْقَظَهـــا العَتْبُ مِنْ نَـــوْمِهَـــا	ولَكِنَّهـــا جَمَّــــةُ الإضْطِرابِ
٦	فَكَمْ أَنْشَـــأَتْ مُــزْنَـــةً للتُّقى	وعـــادَتْ وَشِيكاً كَلَمْـعِ السَّرابِ
٧	وكم وَعَـــــدَتْنِي بِتَـــوْبٍ وَكَمْ	وَمَـا أنْجَـزَتْ وَعْـدَهـا في الْمَتـابِ
٨	وكم خَـــــــدَعَتْنِي عَلَى أَنَّني	بَصِيرٌ بِطُرْقِ الْخَطَـــا والصَّــوابِ
٩	فَلَسْتُ على الأَمْنِ مِنْ غَــدْرِهـــا	ولــو حَلَفَتْ لي بِــآيِ الكِتَــابِ !

حـاسمة بين جيوش الموحـدين (من الأنـدلسيين والمغـاربـة) وبين تجمع الـدول الإسبـانيـة والمتطوعة الأوربية سنـة ٦٠٩ ، وكانت تمحيصاً للمسلمين آذن بـأفول نجم الـدولـة الإسلاميـة هناك ، في كلام يطول ليس هذا مجاله ـ فالمقصود إذن العُقاب : حصن العُقاب ـ أو رابطـة العُقاب ، وكان حصن العُقاب عـامراً أيـام ابن بطوطـة وقـد ذكره في رحلتـه (ط . صـادر ص : ٦٧٢) ، وقال إن بينه وبين غرناطة ثمانية أميـال ـ يقول الشـاعر إنـه لزم المرابطـة في حصن العقاب لكي يجنّب نفسه ما يؤدي إلى المخالفة أو ما يوقعها في الإثم الذي نتيجته العقـاب من الله تعالى . وضرب مثلاً : فقد يمتنع مخلوق عن ارتياد موارد المياه ـ على رغم الحاجـة إليهـا أو الرغبة فيها ـ خشية الذئاب المترصّدة !

(٥) قطع الشاعر همزة « الإضطراب » ضرورة .

[١٥]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ(☆) :

[تختلف هذه القصيدة ـ والقصيدة ذات الرقم ٢٣ ـ عن أصول الشعر العربيّ بتكرار كلمة واحدة لاتتغيّر من أول القصيدة إلى آخرها في قافية البيت . وشفع له أنه وقف هنا ـ وهناك في التالية ـ عند كلمة من مفرداته في غرضه الشعريّ الرئيسي ، أعني : الزّهد بما في الدنيا والعودة إلى الله تعالى ، أعني لفظ الجلالة ، الله ، سبحانه وتعالى .

يبدأ الشاعر بخطابِ مجهولٍ ، وهو نموذج لكثير من الناس ، ممّن اغترّ وفرّط ، ويدعوه إلى العودة إلى الله تعالى ، ويلوذ به ويؤدي حق العبادة ، ويتوب من الذنوب (١ ـ ٨) ويذكر مكانة التقوى والتقيّ (٩ ـ ١١) ومَساءة الشقاء والشقيّ (١٢ ـ ١٣) ويحذّر المتهاون الذي غاب عنه خوف العذاب (١٤ ـ ١٥) ويردّد ماأصاب الْجَبّارين الأشدّاء من سهام الله (١٦ ـ ٢١) ويدعو الإنسان إلى الاعتبار بمن مضى ، والانتباه لصنع الله في الكون من آيات الخلق (٢٢ ـ ٢٦) ويستطرد إلى تسبيح الأفلاك وكل ما في الكون (٢٧ ـ ٣١) وغيرة الله تعالى على حماه (٣٢ ـ ٣٣) وسعادة الموحّد بتوحيده .

وينتقل الشاعر ليضرب مثل العجوز المتصابي (وهو عنده نموذج سيّء) ويذكر جهله وتضييعه (٤٠ ـ ٤٤) ويصل في البيت (٤٥) إلى الحديث عن نفسه ، ويضرب بها المثل ـ على عادته ـ ليقول ما يشاء في العبد إذا ضيّع طاعة الله فأخطأته رحمته وسلك سبيل أهل النار في النار ، وشقي يوم العَرْض العظيم (٤٦ ـ ٥١) ويختم بحديث الفائز ذلك اليوم (٥٢) وبحمد الله تعالى على نعمة الإسلام (٥٣)] .

(☆) في هذا الديوان قصيدة يختم كل بيتٍ فيها بلفظة الجلالة « الله » وقصيدة أُخرى يختم كل بيت

[من السريع]

١ يـــا أَيُّهـــا الْمُغْتَرُّ بـــاللهِ فِرَّ مِنَ اللهِ إلى اللهِ

٢ ولُـذْ بـهِ واسـأَلْـهُ مِن فَضلِـهِ فَقَـــد نَجــا مَنْ لاذَ بـــاللهِ

٣ وقُم لَـــهُ واللَّيـلُ في جنحِــهِ فَحَبَّـــــذا مَن قـــام للهِ

فيها بلفظة (النار) وقرأت في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١٧/٦) أبياتاً تنتهي بكلمة (محمّد) ﷺ ؛ فيها :

مِنَ النَّاسِ بَيْنَ النَّاسِ ماسارَ سائرٌ أجـلُّ وأعلى قِمَّـــةً مِنْ محَمّـــدِ

وما وطِئَتْ رجلانِ هـامـةَ أرضنـا أجـلُّ وأهْـدى همَّـةً مِنْ محَمّـدِ

وما حَملت من ناقـةٍ فوق كُورهـا أعـزَّ وأوفى ذِمَّـــةً مِنْ محَمّـــدِ

ومـا مِنْ إمـامٍ أمَّـهُ النــاسُ بُرْهـةً أبرَّ وأرْبى أمَّـــةً من محَمّـــدِ

ولم يسمِّ الفيروزآبادي الشّاعر ؛ وظاهرٌ من أسلوبه أنه لشاعر متأخِّر الزّمان .

وفي الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ، السفر الرابع : ٢١٣ قطعة لأبي الحجاج ابن الشيخ البلوي (صاحب ألف باء) يهزأ فيها بنبوءة هندية شاعت في العالم الإسلامي سنة ٥٨١ أنّه في يوم ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ سيكون طوفان وريح تأخذ كل شيء . وكان بعض السذّج خافوا من الإشاعة . وتصدى العلماء والشّعراء الصالحون لهذه الشائعة ، ثم أكدوا ماقالوه بعد مرور اليوم المزعوم . قال أبو الحجاج :

يـا أيهـا النـاس اشكروا ربكم لم يـــك لا خسفٌ ولا ريـــحُ

وكـــذبـــة الهنـــدي لم تتفّـق وكان مـاقـد قـالـه: الريـحُ !

تعْســـاً لـــه من كاذبٍ مفترٍ لســـانـــه حرّكـــه الريـحُ

وحـــافِرُ القـوبـــة أفّ لـــه إذ هـــــزّه ذلكمُ الريـــــحُ

صـدّق كـذابـاً بـلا حجّـــةٍ أولى بهـا بـل قـولـه الريـحُ

الحمــد لله الـــذي عنـــده الـ ـخيرُ ومن رحمتـــه الريـــحُ

يرسلهـــا بين يـــدي غيثـــه بشرى لنـا يـا حبّـذا الريـحُ !

(١) ضبط (فَرَّ) في الأصل بالفتح .

(٣) الجِنح (بالكسر) الجانب ، ومن الليل : الطائفة منه ، وتُضمُّ الجيم أيضاً .

٤ وأتلُ مِنَ الوَحْيِ ولَو آيةً ‎ ‎ تُكْسى بِها نوراً مِنَ اللهِ

٥ وعَفِّرِ الوَجهَ لَهُ ساجِداً ‎ ‎ فَعزَّ وَجهٌ ذَلَّ للهِ

٦ فَما نَعيمٌ كَمُناجاتِهِ ‎ ‎ لقانِتٍ يُخْلِصُ للهِ

٧ وابعُدْ عَنِ الذَّنبِ ولا تاتِهِ ‎ ‎ فَبُعدُهُ قُربٌ مِنَ اللهِ

٨ يا طالِباً جاهاً بِغَيرِ التُّقى ‎ ‎ جَهِلتَ ما يُدني مِنَ اللهِ

٩ لا جاهَ إلاَّ جاهُ يومِ القَضا ‎ ‎ إذْ لَيسَ حُكْمٌ لِسِوى اللهِ

١٠ وصارَ مَنْ يُسْعَدُ في جَنَّةٍ ‎ ‎ عالِيَةٍ في رَحْمَةِ اللهِ

١١ يَسْكنُ في الفِرْدَوْسِ في قُبَّةٍ ‎ ‎ مِن لُؤلُؤٍ في جيرَةِ اللهِ

١٢ ومَنْ يَكُن يُقضى عَلَيهِ الشَّقا ‎ ‎ في جاحِمٍ في سَخَطِ اللهِ

١٣ يُسحَبُ في النَّارِ على وَجْهِهِ ‎ ‎ بِسابِقِ الْحُكْمِ مِنَ اللهِ

١٤ يا عَجَباً مِنْ موقِنٍ بالجزا ‎ ‎ وهوَ قليلُ الخوفِ للهِ

١٥ كأنَّهُ قَد جاءَهُ مُخبِرٌ ‎ ‎ بِأمْنِهِ مِن قِبَلِ اللهِ

١٦ يا رُبَّ جَبَّارٍ شَديدِ القُوى ‎ ‎ أصابَهُ سَهمٌ مِنَ اللهِ

١٧ فأنفذَ الْمَقتَلَ منهُ وكَمْ ‎ ‎ أصمَتْ وتُصْمي أسهمُ اللهِ

١٨ وغالَهُ الدَّهرُ ولَم تُغنِهِ ‎ ‎ أنصارُهُ شَيئاً مِن اللهِ

---

(٧) رسمت في الأصل المخطوط (تاته) بلا همز على مذهب الأندلسيين المائل إلى التّسهيل .

(١٢) الجاحم : الجمر الشديد الاستعال ؛ والمكان الشديد الحرّ .

(١٣) في سورة القمر ٤٧/٥٤ ـ ٤٨ : ﴿ إنّ المجرمينَ في ضلالٍ وسُعُر يوم يُسْحَبونَ في النَّارِ عَلى وُجوهِهِمْ ذوقوا مَسَّ سَقَر ﴾ .

(١٦) في سورة إبراهيم ١٤/١٥ : ﴿ .. وخابَ كُلُّ جبارٍ عَنيد ﴾ .

(١٧) أصْمى الطريدة : قتلها في مكانها .

١٩ وَاسْتُــلَّ قَسْراً مِنْ قُصــورٍ إلى الــأَجْـــــداثِ وَاسْتَسْلَمَ للهِ

٢٠ مُرتَهنــاً فيهــا بمــا قَــدْ جَنى يُخشَى عَليـــهِ غَضَبُ اللهِ

٢١ ليسَ لـــهُ حَـــولٌ ولا قُـــوَّةٌ الْحَـــولُ والقُـــوَّةُ للهِ

٢٢ يـا صـاحِ سِر في الأرضِ كيما تَرى مــا فَــوقَهـــا مِن عِبَرِ اللهِ

٢٣ وكَم لنـــا مِن عِبرةٍ تَحتَهـــا في أُمَمٍ صـــارتْ إلى اللهِ

٢٤ مِنْ مَلِـكٍ مِنْهُمْ ومِن سُـوقَـةٍ حَشْرهُمْ هَيْنٌ عَلى اللهِ

٢٥ والْحَـظْ بِعَينيـكَ أَديمَ السَّما ومـا بهـا مِن حِكمَـةِ اللهِ

٢٦ تَرى بهـــا الأَفــلاكَ دَوَّارةً شـاهِـدةً بـالْمُلـكِ للهِ

٢٧ مـا وقَفَتْ مُـذ أُجرِيَتْ لَمْحَـةً ـأو دونَهـاـ خَـوفـاً مِن اللهِ

٢٨ ومـا عَليهـا مِنْ حِسـابٍ ولا تَخشى الـــذي يُخشَى مِن اللهِ

٢٩ وهيَ وما غـابَ ومـا قَـدْ بـدا مِنْ آيَـــةٍ في قَبْضَـــةِ اللهِ

٣٠ تُـــوحِّـــدُ اللهَ على عَرشـــهِ في غَيْبِـــهِ فـــالأَمرُ للهِ

٣١ ومـــا تَسمَّى أَحَـــدٌ في السَّما والأَرضِ غَيرُ اللهِ بـــاللهِ

---

(١٩) الأجداث جمع جَدَث : وهو القبر .

(٢٢) في سورة العنكبوت ٢٠/٢٩ : ﴿ قُلْ سيروا في الأَرضِ فـانظروا كيفَ بَـدأَ الخلق ثم اللهُ يُنْشِئُ النَشأةَ الآخِرَة إنَ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قدير ﴾ .

(٢٤) السُّوقة : الرعيّة .

(٢٩) في سورة الزُّمر ٦٧/٣٩ : ﴿ ومـا قَـدَروا اللهَ حَقَّ قَـدْرِهِ والأَرْضُ جميعـاً قَبْضَتُـه يومَ القِيـامـة والسّماواتُ مطويّاتٌ بِيَمينِه سُبْحانَهُ وتَعالى عَمّا يُشرِكونَ ﴾ .

(٣٠) في سورة الإسراء ٤٤/١٧ : ﴿ وإِن مِن شَيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ .

(٣١) في بصائر ذوي التمييز ، للفيروزآبادي ١٢/٢ : الله ـ جلَّ جلاله ـ اسم مختصٌ بالبارئ تَعالى .

٣٢	إنَّ حِمى اللهِ مَنيـــــــــعٌ فَما	يَقرَبُ شَيءٌ مِن حِمَى اللهِ
٣٣	لا شَيءَ في الأَفـــواهِ أحلى من التَّـ	ـــوحيـــــدِ والتَّمجيـــــدِ للهِ
٣٤	ولا اطمَـــــــأَنَّ القَلبُ إلاَّ لمن	يَعمُرُه بـــــالـــــذِّكْرِ للهِ
٣٥	وإنْ رَأى في دينـــــهِ شُبْهـــــةً	أمْسَـــك عَنهـــا خَشيـــةَ اللهِ
٣٦	أو عَرَضَتْـــهُ فـــاقَـــةٌ أو غِنًى	لاقـــــاهُما بـــــالشُّكرِ للهِ
٣٧	ومن يكُن في هَـــديـــهِ هَكَـــذا	كانَ خَليقـــــــــاً بِرِضى اللهِ
٣٨	وكانَ في الـــدُّنيـــا وفي قَبْرِهِ	وبَعْـــــدَهُ في ذِمَّـــــةِ اللهِ
٣٩	وفي غَـــــدٍ تُبصِرهُ آمنـــــاً	لِخَـــوفِـــــهِ اليَـــومَ مِنَ اللهِ
٤٠	مـــا أَقْبـــحَ الشَّيـــخَ إذا مـــا صَبـــا	وعـــاقَـــــهُ الْجَهـــلُ عَنِ اللهِ
٤١	وهُـــو مِن العُمْرِ على بـــــازِلٍ	يَحمِلُـــــهُ حَثّـــــاً إلى اللهِ
٤٢	هَـــلاَّ إذا أشْفى رَأى شيبَـــــهُ	ينعـــــاهُ فـــــاسْتَحْيَى مِنَ اللهِ

---

(٣٢) روى الإمـــام أحمـد من حـديث طـويـل عن النعمان بن بشر أن رسـول الله ﷺ قـال : « ... ولكلِّ ملكٍ حِمىً وإن حمى الله مَحـارِمُـه » ٢٦٩/٤ وفي حـديث آخر : « إنَّ الله حَمى حِمىً وإن حمى الله ماحرّم » رواه أبو داوود والنسائي .

(٣٦) في الفصيح يقال : عرض له كذا أي بدا وظهر (بتعدية الفعل إلى حرف اللام لهذا المعنى) .

(٤٠) تكرر ذكر قبح الصبا ممن أدركته السن وتقدم منه العُمر .

(٤١) رسمها في الأصل حثّي . وتختلط المثناة بالمثلثة لضعف ظهور التنقيط . ورسمها في المطبوع حتّى .

ـ يقال : جمل بازل وناقة بازل ، وذلك في تـاسع سنيِّـه وليس بعـده سن تُسمّى . والمقصود : جمل قويّ يحث الْخُطا .

(٤٢) أشفى على الشيء : أشرف . وينعاه : يخبر بموته .

٤٣	كأنَّما رينَ على قَلْبِــــــــــــهِ	فَصَـــــارَ مَحْجــوبــــاً عَنِ اللهِ
٤٤	مــا يُعْــذَرُ الجــاهِــلُ في جَهْلِــهِ	فَضْــلاً عَنِ العــــالِمِ بـــــاللهِ
٤٥	دارانِ لا بُـــــدَّ لنـــــا مِنهُما	بـــالفَضْــلِ والعَــــدْلِ مِنَ اللهِ
٤٦	ولَسْتُ أَدْري مَنْــــــزلي مِنْهُما	لكِنْ تَـــــــــوكَّلْتُ عَلى اللهِ
٤٧	فــاعجَبْ لِعَبْــدٍ هــذهِ حــالُــهُ	كيفَ نَبـــا عَنْ طــاعــــةِ اللهِ
٤٨	واسَــوْأَتــا إنْ خــابَ ظَني غَــداً	ولَمْ تَسَعْني رَحْمَــــــــــةُ اللهِ
٤٩	وكُنتُ في النَّـــارِ أخـــا شِقْــوَةٍ	نَعــوذُ مِنْ ذلــــكَ بــــاللهِ
٥٠	كَمْ سَــوْءَةٍ مَستــورَةٍ عِنْـــدنـــا	يَكشِفُهـــــا العَرْضُ عَلى اللهِ
٥١	في مَشْهَــدٍ فيــه جميــعُ الــوَرَى	قَـــدْ نَكَّســوا الأذْقـــانَ للهِ
٥٢	وكَمْ تَرَى مِنْ فـــائـــزٍ فِيهِمُ	جَلَّلَـــــــــــهُ سِترٌ مِنَ اللهِ
٥٣	فـــالْحَمــدُ للهِ على نِعمَــةِ الـ	إسْـــلامِ، ثُمَّ الْحَمْـــــدُ للهِ

---

(٤٣) في الأساس « الرَّين والرَّان » ماغطّى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب . وفي التنزيل العزيز : ﴿ كَلاّ بل رانَ على قُلوبِهم ما كانوا يَكسِبون ﴾ سورة المطففين [١٤/٨٣] .

(٤٥) الدّاران المذكورتان في البيت هما : الْجَنَة ، والنَّار : وسيحلُّ الشاعر ـ وكل واحد من بني آدم ـ في إحداهما ، قال : « ولست أدري منزلي منهما : البيت ٤٦ » .

(٥٠) السّوأة : كل عمل وأمر شائن .

(٥١) في سورة الإسراء [١٠٧/١٧ ـ ١٠٩] : ﴿ قلْ آمِنوا بهِ أو لاتُؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلمَ من قَبلِه إذا يُتلى عليهم يَخِرونَ للأذقانِ سُجَّدا . ويقولونَ سبحانَ رَبِّنا إنْ كان وعدُ رَبنا لمفعولاً . ويَخِرُّونَ للأذقانِ يبكون ويَزيدُهم خُشوعاً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يخرون للأذقان سجداً ﴾ أي يسقطون بسرعة على وجوههم ساجدين تعظيماً لله تعالى وشكراً له .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ في رجل يجرّ ثيابه خُيَلاء في يومِ عيد ، ويقال إنـه ابن أبي رجاء(☆) :

[تتوهّجُ هذه القطعة ـ على قِصَرها ـ في فكرة واحدة : إنَ الْمُهِمَّ في الإنسان هو الْمَخْبَر لا الْمَظْهَر .

فالعيد الحقيقي يوم يُغفر للإنسان ، فيكسب حياته الأخرى (١) وما نفعُ ذي الثّوب الجديد إذا كان دينُه مردوداً ؟ وأيّ ضرر على ذي الثّوب البالي وهو مقبولٌ عند الله ؟ (٢ ـ ٤)] .

[من البسيط]

١	ما عيدُكَ الفَخمُ إلاّ يومَ يُغْفَرُ لَكْ	لا أنْ تَجُرَّ بِهِ مُستَكبِراً حُلَلَكْ
٢	كَمْ مِن جَديدِ ثِيابٍ دِينُهُ خَلَقٌ	تَكادُ تَلعنُهُ الأَقْطارُ حَيثُ سَلَكْ
٣	وكَمْ مُرَقَّعِ أَطمارٍ جَديدِ تُقًى	بَكَتْ عليهِ السَّما والأَرْضُ حِينَ هَلَكْ
٤	ما ضَرَّ ذلِكَ طِمْراهُ ولا نَفَعَتْ	هذا حُلاهُ ولا أَنَّ الرِّقابَ مَلَكْ

(☆) هو الوزير أبو خالد هاشم بنُ أبي رَجاء الإلبيري . قال فيه لسان الدّين : « كان من عُظَماء أهل إلبيرة وسادتهم ، وهو الذي عاد الفقيهَ الزاهدَ أبا إسحاق بن مسعود الإلبيري في مرضهِ ، وعَذله على رَداءة مَسكنه ، وقال له : لو سكنت داراً خيراً مِن هذه لكان أَوْلى لك . فأجابَه رحمه الله بقوله : قالوا ألا تستجيدُ بيتاً ... القصيدة » وعَدّه في أعيان غَرناطة وكُبرائها .

(الإحاطة ٣١٧/٤ ، نفح الطيب ٤٩١/٣)

(١) الْحُلل : جمع الْحُلَة : كل ثوب جديد تلبسه (وقيل : لاتكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة أو ثلاثة أثواب ، إزار ورداء وقميص) .

(٣) الأطْمار : جَمْعُ طِمْرٍ ، وهو الثَّوبُ الْخَلَقُ البالي .

(٤) الحلية : مايُزيّن به من مصنوع المعدنيات والحجارة الكريمة والجمع حِلى وحُلىّ .

[١٧]

وقال أيضاً رضي الله عنه :

[هـذه قطعـة في تلـوّم النفس ، واستكثـار الخطيئـات ، وأثر الخطيئـة في الرّين على الفؤاد ، وأنّ مِن سَواد الخطيئـة مـا يجعلُ الصبـح مظلماً !!] .

[من السّريع]

١ أيّ خَطيئـــاتِيَ أَبْكي دَمـــا ... وَهْيَ كَثيرٌ كَنُجـــوم السَّما

٢ قـــد طَمَستْ عَقْلي فَما أَهْتَـــدي ... وأَوْرَثتْ عَيْنَ فُـــؤادي العَمى

٣ إنّـــا إلى اللهِ ! لَقَـــدْ حَـــلَّ بي ... خَطْبٌ غَـدا صُبحي بِـــهِ مُظلِما !

[١٨]

وقال رحمه الله ـ :

[أجرى الشّاعر مقارنةً بين التّبريز في ميدانِ البِطالة وبين التبريز في التُّقى والبِر ، وقـــال : إن الفهم ينبغي أن يـــدل على الخير وإلاّ فلا فائدة فيه (١ ـ ٢) وربَط بين صداقةِ الأصحاب الزّائفة والأعمال غيرِ المقبولة وغير الصّالحة (٣)] .

[من الطويل]

لَبَرَّزْتُ في مَيْـدانِ كُـلِّ بِطـالَـةٍ	وَبَرَّزَ غَيْري في التُّقَى أيَّ تَبْريـــزِ
إذا لَمْ يَكُنْ فَهْمي إلى الْخَيْرِ قـائِـدي	فَـلا كانَ فَهْمي لا ، ولا كانَ تَمْييزي
تَطَلَّبْتُ إخْـوانَ الصَّفـا فَـوَجَـدْتُهُمْ	زُيوفـاً كَأَعْمالي وَمَنْ لي بـإبريزِ ؟ !

---

(١) البِطالـة (بكسر البـاء) هي فعل البَطّـال ، والبطّـال مبـالغـة اسم فـاعل من بَطّل أي اتبع البِطالة واللهو ولم يشتغل بما ينفعه .واللام في (لبرّزت) للتوكيد وهي لام الابتداء .

(٣) الدراهم الزيوف : المردودة لغشّ ، والذهب الإبريز : الخالص .
ـ والصفـا هنـا هي الصفـاء ، سهّلت الهمـزة . وإخـوان الصفـاء هم أصحـاب الرجـل الـذين يصطفيهم ؛ ويكونون معه في أحوال السُّرور ، والمتوقّع أن يكونوا معه في ساعات العسر .
ـ وأجرى الحـديثَ بصيغـة المتكلّم ، جَرْيـاً مـع أُسلـوبـه ، في ضرب المثـل عن نفســه ولفت الأنظار إلى الخطأ والصَّواب ، والحسن والقبيح من خلال ذلك الحديث .

[١٩]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[في القطعة وصفٌ لنزول الشّاعر رابطةَ العُقاب أو : حصن العُقاب (انظر حواشي القطعة ١٤) وفيها ذكرٌ لأُنسِه بهذا المكان المنقطع ، وإن كان الظن يقع أن يكون موحشاً (١ ـ ٢) ولقد صوّر الشاعر الجانبَ الآخر المتروك من المنازل والدّيار ، فإنّه غادر أناساً : الذئابُ أسلم جواراً منهم ! وكيف يأسى على فقيهٍ تلكَ حالُه : (من المُرائين أو النَّمّامين) أو على صديقٍ يكون منه الشرُّ والبَلاء ؟ (٣ ـ ٤) ويكشف عُوار الكُبَراء والوُجَهاء لسوء أعمالِهم وسُلوكهم حتّى إنَّه يُزهّد في رؤيتهم (٥) ويَخْلُص إلى نتيجة بعد ذلك العرض : إن البُعد غنيمة والوحدة خلاصٌ حين يكون الناسُ حولك على تلك الشّاكلة (البيت ٦)] .

[من الوافر]

١ أَلا حَيِّ العُقَابَ وقَاطِنِيهِ ... وقُلْ أَهلاً بِهِ وبِزائِرِيهِ

٢ حَلَلْتُ بِهِ فَنَفَّسَ ما بِنَفسي ... وأَنَّسَنِي فَما اسْتَوحَشْتُ فيهِ

٣ وكَمْ ذِيبٍ نُجاوِرَهُ ولكِنْ ... رأيتُ الذِّئب أَسْلَمَ من فقيهِ

(٣) أي : أسلم من فقيهٍ من طُلاّب الدُّنيا ، المتاجرين بعلمهم . وقد كانت الأندلس ـ آنذاك مَؤُوفة بنفرٍ من الفقهاء والأُدباء ومُشْتَهي السُّلْطة الساكتين عن هَفَواتِ الحكّام وأخطائهم المنجرفين مع محبّة الدنيا المستغرقين في ملذّاتها .

ولم أجــزعْ لفقـــدِ أَخٍ لأنّي　　رأيتُ الْمَرءَ يُـؤتى مِن أَخِيـــهِ

وأيـــأَسَني من الأَيَّـــامِ أنّي　　رأيتُ الـوَجْـهَ يَـزهَـدُ في الـوَجيـهِ

فـــآثَرتُ البِعـــادَ على التّـــداني　　لأَنِّي لَمْ أَجِـــد مَن أَصطَفيـــهِ !

---

(٤) أُتِيَ الرجل : دنا منه العدو وأشرف عليه واستعملها الشاعر بتوسع لمعنى : يصابُ ، أو يؤخذ على غِرّة . والمقصود بالأخ هنا الصَّديق .

(٥) الوجيه : ذو الجاه والقَدْر .

[٢٠]

وقال رحمه الله في خراب إلبيرة ـ :

[هذه القصيدة في رثاء مدينة إلبيرة وندب زمانها المنقضي والبكاء على ماتناثر من فضلها وضاع من مجدها .

بدأ الشاعر فعاتب أهل زمانه ـ وعادَتُهم رثاءُ الدّيار وندبُ الأطلال ـ لإهمالهم رثاءَ إلبيرة (١ ـ ٢) ويذكر بعض مآثر هذه المدينة وفضلها على غيرها من الْمُدن (٣) وفضل أهلها وعلمائها . ويذكر كم تحقّق فيها من المآرب (٤ ـ ٦) ويذكر حُسن نسائها (٧ ـ ٨) ويُصَوّر تحوّلها من الحياة والحركة إلى الضياع والْخَراب (٩ ـ ١١) ويرثي لها بحرقة (١٢) ويسترجع صوراً ماضيةً منها (١٣ ـ ١٥) ويسجّل أساه وأسفه (١٦) ويُثني على أهل إلبيرة وعلمائها من الأحياء والأموات (١٧ ـ ١٩) .

ويخرج الشّاعر إلى الاعتبار بما جرى ـ من خَراب المدينة ـ (٢٠ ـ ٢١) ويُعلّل ماجرى على إلبيرة تعليلاً يرتبط بفلسفة الشاعر (٢٢ ـ ٢٣)] .

[من الطويل]

١ يُضَيَّعُ مَفْروضٌ ويُغفَلُ واجِبُ وإنِّي على أهْلِ الزَّمانِ لَعاتبُ

٢ أَتُنْدبُ أَطْلالُ البلادِ ولا يُرى لإِلْبيرَةٍ مِنهُمْ على الأَرضِ نادِبُ

---

(٢) إلبيرة : كانت إلبيرة مركز كورة إلبيرة ثم خربت في الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ هـ (فعمرت غرناطة التي كانت صغيرة مغمورة) ونهضت في مقام إلبيرة . =

٣	عَلى أَنَّهـا شَمسُ البِـلادِ وأُنسُهـا	وكلُّ سِـواهـا وَحشَـةٌ وَغَيـاهِبُ
٤	وكم مِنْ مُجيبٍ كانَ فيها لِصـارخٍ	تُجابُ إلى جَدْوى يَدَيهِ السَّبـاسِبُ
٥	وكَمْ مِن نَجيبٍ أَنْجَبَتـهُ وعـالِمٍ	بـأَبوابِهِمْ كانَتْ تُنـاخُ الرَّكائبُ

= قال ياقوت : « وربما قالوا لِبيرة ويلبيرة ؛ مدينة في جنوب الأندلس . كانت مركز كورة كبيرة ، من مدنها التابعة لها غرناطة وقسطيلية وشلوبينية » . وظلت عامرة إلى نهاية القرن الرابع الهجري . فلما اضطرب أمر الأندلس أيام الفتنة استقدم أهلُها قبيلة صنهاجَة فقادوا المدينة وحكموها . فلما أنسوا من أنفسهم ضعفاً عن الدفاع عن إلبيرة ـ لأسباب عسكرية وغير ذلك ـ خرجوا إلى سهل غرناطة واستوطنوا المنطقة ، وخرج الناس عن إلبيرة شيئاً فشيئاً ، « وخربت عند ذلك إلبيرة » كما قال الأمير عبد الله في مذكراته .

وكانت إلبيرة ـ قبل خرابها ـ من أعظم كُور الأندلس ، وكانت تسمى في عهود ما قبل الإسلام : سَنام الأندلس ، وكانت في عهد الدولة المروانية عامرة مشهورة . وقال ابن حيان : إنه كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حَكَمة كُلّها من فضة ، لكثرة الأشراف بها (والحَكَمة لجامُ الفَرس ونحوه من الدوابّ) .

وخلفت غرناطة مدينة إلبيرة فازدهرت وظهرت ، وصارت عاصمة الأندلس الأولى منذ دخول ابن الأحمر إليها ، وانحسار ظل الإسلام عن أمصارها الأخرى . وكورة إلبيرة كانت المحلة التي اختارها أمير الأندلس أبو الخطار الكلبي فأنزل فيها جند دمشق من طالعة بلج بن بشر ـ وكانوا جميعاً في قرطبة ففرّقهم في بلاد الأندلس حسماً للنزاع ، وجعل جند كل منطقة فيما يشبهها من بلاد الأندلس ، ولهذا قيل لإشبيلية (حمص) ـ وغرناطة من بعد ـ دمشق .

راجع معجم البلدان لياقوت « إلبيرة » و« غرناطة » والتبيان للأمير عبد الله « مواضع متفرقة » . والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ـ المقدمة . وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس والرّوض المِعطار للحميري في مادة إلبيرة وغرناطة .

(٣) غياهب : جمع غَيْهَب وهو الظُلمة أو شدة سواد الليل ، يقال : ليل غيهب .

(٤) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والجوب : القطع . والصارخ : المستغيث .

(٥) الركائب : جمع الركاب : الإبل ؛ يُسار عليها ، واحدتها راحلة .

٦ وكَمْ بَلَغتْ فِيها الأَماني وقُضِّيَتْ لِصَبٍّ لُبانـاتٌ بِها ومآربُ

٧ وكَمْ طَلَعتْ مِنْها الشُّموسُ وكم مَشتْ على الأَرضِ أَقمارٌ بِها وكواكِبُ

٨ وكَمْ فَرستْ فيها الظِّباءُ ضَراغماً وكم صَرعَتْ فيها الكُماةَ كواعِبُ

٩ لَعَهدي بِها مُبيَضَّةَ اللَّيلِ فاغتَدتْ وأَيَّامُها قَد سَوَّدَتْها النَّوائبُ

١٠ وما كانَ فيها غيرُ بُشْرى وأَنعُمٍ فَلَمْ يَبْقَ فيها الآنَ إلاَّ الْمَصائِبُ

١١ غَدَت بَعدَ رَبَّاتِ الحِجالِ قُصورُها يَباباً تُغاديها الصَّبا والْجَنائِبُ

١٢ فَآهٍ أُلوفاً تَقْتَضي عَددَ الْحَصا على عَهْدِها ماعاهَدتْها السَّحائِبُ

١٣ عَجِبْتُ لِما أدري بِها مِن عَجيبةٍ فيالَيتَ شِعري أَينَ تِلْكَ العَجائِبُ ؟

١٤ وما فَعلَتْ أَعلامُها وفِئامُها وأَرْآمُها أم أَينَ تِلْكَ المراتِبُ

---

(٦) اللُّبانة : الحاجة . وفي الأساس « وما قضيت منه لُبانتي : نهمتي » .
- والصَّبُّ : العاشق المشتاق .

(٨) جعل النسوة من الْحُسْنِ والجمال شموساً وأقماراً وكواكبَ وظباءً وجعل الرجال ضراغم (وهي الأسود) وكل ذلك على المجاز والاستعارة .
- والكماة : جمع الكمي : الجريء ؛ وفي اللغة : الشجاع كان عليه سلاح أو لم يكن .
- الكواعب : جمع كاعب وهي الفتاة أوان نهد ثدياها .

(٩) هذا البيت يذكِّر بقول أبي تمام :

ضوء من النار والظلماء عاكفةٌ وظلمةٌ من دخانٍ في ضُحًى شحِبِ

(١٠) أَنْعُم : جمع نِعمة : المسرّة ، والخفض والدَّعة .

(١١) ربّات الحجال : النساء ، والحِجال جمع الحجلة : موضع مثل القبة يُتَّخذ للعروس يُزيَّنّ بالثياب والستور والأَسِرّة ولها أزرار كبار .

(١٢) ضبطها في الأصل المخطوط : فآهَ .

(١٤) أعلام جمع علم : سيد القوم .
- والفئام : الجماعة من الناس .
- والمرتبة : المنزلة الرفيعة .

١٥ وأَينَ بِحـارُ العلْمِ والحِلْمِ والنَّـدى وأَيْنَ الأَكُفُّ الهـامِيـاتُ السَّواكِبُ

١٦ شقَقْنا على مَنْ ماتَ مِنهُمْ جُيوبَنـا وكانَ قَليــلاً أَنْ تُشَــقَّ التَّرائِبُ

١٧ وإنْ فُقِـدَتْ أعْيـانُهمْ فَلَتـوجَـدنْ مَـدى الـدَّهْرِ أفعـالٌ لَهُمْ ومَنـاقِبُ

١٨ وَقَـد بَقِيَتْ في الأَرضِ منهُمْ بَقِيَّـةٌ كأَنَّهم فيهـــا نجُـــومٌ ثَـــواقبُ

١٩ فَلِّلــــهِ ثــــاويهِمْ ولله حَيُّهم فكلٌّ جَـوادٌ بـاهِرُ الفَضْـلِ واهِبُ

٢٠ لَسـاءَلْتُ عنهم رَسمَهـا فـأجـابني «ألا كُلُّ شَيءٍ مـا خَـلا اللهَ ذاهبُ»

٢١ يُخاطِبُنا: أَنْ قَد أُخِـذتُ بـذنبكُمْ وما أَحَدٌ منكُم عنِ الذَّنبِ تـائِبُ!

٢٢ وأَنْ قَـد قَسَتْ أكبـادُكُم وَقُلـوبُكم ومــــا مِنْكُمُ داعٍ إلى اللهِ راغِبُ

٢٣ لَشَكْلُكُمُ أَولى وأَجْــدَرُ بــالبُكا عَلى مِثْلِـهِ حَقّـاً تَقومُ النَّـوادِبُ!

---

(١٥) الهاميات جمع الهامية ، من همى الدمع : سال ، وهمى السحاب : صَبَّ مـاءه ، وهمى المطر : انصَبَّ . وتوصف أكف الكرام بأنها تهمي وتسكب على التشبيه بالسحاب والمطر .

(١٦) جيب القميص : طوقه . والترائب : عظـام الصـدر ، أو مـا وَلِيَ الترقوتين منـه ؛ أو مـا بين الثديين .

(١٨) ثقب الكوكب : أضاء . والكواكب : ثاقبة .

(١٩) من معاني ثوى : مات .

(٢٠) عجز البيت يذكر بقول لبيد (ديوانه : ٢٥٦) :

ألا كل شيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ وكل نعيمٍ لا محـــالـــة زائِــلُ

(٢١) أخذه بكذا : أي عاقبه به (بسببه) .

(٢٢) في سورة الحديد [١٦/٥٧] : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ للذينَ آمنوا أَنْ تَخشعَ قُلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبل فطالَ عليهم الأَمـدُ فقسَت قُلوبهم وكثيرٌ منهم فاسِقون ﴾ .

(٢٣) الشَّكل : الشبه والمثلُ : ويكسر .

[٢١]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ يرثي امرأته ؛ وأَحْسَن في هذه القصيدة كلَّ الإحسان :

[ورد في تقديم القصيدة أنها في رثاء زوج الشاعر . والحق أنّه جعل رثاءها أساساً للقصيدة غير أنها مضت في ثلاث حلقات :

الحلقة الأولى : في رثاء الزوجة (١ ـ ١٩) .

والحلقة الثانية : في زهده وزجر الستين له (٢٠ ـ ٣٩) .

والحلقة الثالثة : في مواقف أخلاقية ودينية مما يُنكره على غيره ويرضاه من نفسه .

ـ بدأ الشاعر فوقف عند الجدث (١) العاطر بتقوى الزوجة وورعها (٢ ـ ٣) مسلِّماً محيِّياً (٤) ورجا زيارة الطيف (٥) فيواسي ذلك قلبه ويعلِّله (٦) وذكر من مشاعره نحو زوجته (٧ ـ ٩) ومآثرها الطيبة (١٠) التي استدعت بكاءه ورثاءه (١١) والتي تستحق أن يقضي أسفاً (١٢) ويجعل ضريحها في قلبه (١٣ ـ ١٤) ودعا لها بالمغفرة (١٥) وذكر ما يستحق جزاء الصبر على فقدانها (١٦ ـ ١٩) .

ـ وخرج إلى ما يَجْمُلُ بمن جاوز الستين (٢٠ ـ ٢٢) وأن مآرب الحسان فيه انقضت (٢٣ ـ ٢٦) وبيَّن لزومه كتاب الله ، وتنعُّمه به وبالعلم متابعةً وتعليماً (٢٧ ـ ٣٠) ووعظ نفسه (٣١ ـ ٣٤) وذكر تجاربه من السنين مع الناس (٣٥ ـ ٣٧) وإباءه وارتحاله عن مواطن الذلّ (٣٨ ـ ٣٩) .

ـ والتفت إلى جانب آخر فَذَمَّ الثرثارين (٤٠ ـ ٤٣) وذكر فضل

الصمت والقصد في الكلام (٤٤ ـ ٤٧) وزهده (٤٨ ـ ٥١) وقناعته (٥٢ ـ ٥٤) ومكانته في الناس (٥٥) وأن العاقبة لمن ثقلت موازينه (٥٦ ـ ٥٨) وختم بشكر الله تعالى والضراعة له (٥٩ ـ ٦٠)] .

[من الكامل]

١ عُج بِالْمَطِيِّ عَلى اليَبابِ الغَامِرِ ... وارْبَعْ عَلى قَبْرٍ تَضَمَّنَ نَاظري

٢ فَستَسْتَبِيْنُ مكانَه بِضَجيْعِهِ ... ويَنِمُّ منهُ إليكَ عَرْفُ العاطِرِ

٣ فلكَم تضَمَّنَ مِن تُقىً وتعَفُّفٍ ... وكريمِ أعراقٍ وعِرْضٍ طَاهِرِ

٤ واقْرَ السَّلامَ عليهِ مِن ذي لَوعَةٍ ... صَدعَتْهُ صدعاً مَالَهُ من جابِرِ

٥ فَعَساهُ يسمحُ لي بِوَصلٍ في الكَرى ... مُتَعاهِداً لي بالخَيالِ الزَّائِرِ

٦ فَأُعَلِّلَ القلْبَ العليلَ بِطيفِهِ ... عَلِّي أوافيهِ ولَسْتُ بغادرِ

٧ إنِّي لأسْتَحييهِ وهو مُغَيَّبٌ ... في لَحْدِه فكأنَّهُ كالحاضِرِ

٨ أرعى أذِمَّتَهُ وأحفظُ عهدَهُ ... عندي فَمَا يَجري سواه بخاطري

٩ إنْ كان يَدثُر جسمُه في رَمْسِهِ ... فَهَواي فيهِ الدَّهرَ لَيسَ بداثِرِ

١٠ قَطَعَ الزَّمانَ معي بأكرمِ عِشْرَةٍ ... لَهْفي عليهِ مِنْ أبَرِّ مُعاشِرِ

١١ ما كانَ إلاَّ نَدْرَةً لاأرتجي ... عِوَضاً بِهَا فَرَثيتهُ بِنوادرِ

---

(١) عُجْ : من فعل عاج بالمكان : أقام به .
واليباب والغامر : الخراب وفي الأساس : ارْبَعْ على نفسك : تمكَّث وانتظر .

(٢) في الصحاح : نَمَّ الحديث بابه ردَّ (يَرُدُّ) ـ وَيَنِمُّ بالكسر لغة فيه ، الضجيع هنا المتوفى (المقصود زوجة الشاعر) .

(٤) صرعه : شقَّه (وهو هنا صدع مجازيّ) .

(٩) الرّمس : القبر .

١٢	ولَـــوَانَّني أنصَفتُـــــهُ في وُدِّهِ	لَقَضيتَ يَـومَ قضى ولم أستـاخِرِ!
١٣	وشقَقتُ في خِلْبِ الفـؤادِ ضَريحَـهُ	وَسَقَيتُـهُ أبـداً بمَـاء مَحَـاجري
١٤	أجِـدُ الحلاوَةَ في الفـؤادِ بكَـونـه	فيـه، وأرعَـاهُ بعَينِ ضمَـائِري
١٥	لَسَـألتُ مَغفرةً لَـهُ وَتَجـاوُزاً	عَنـهُ من الرَّبِّ الْجَـوَادِ الغَـافرِ
١٦	أخْلِـقْ بمثلي أن يُرى مُتَطلِّبـاً	حَـوراءَ ذاتَ غَـدائرٍ وأسـاوِرِ
١٧	مَقْصُـورةً في قُبَّـةٍ مِنْ لُـؤلـؤٍ	ذُخِرتْ ثَـواباً لِلْمُصـابِ الصَّابرِ
١٨	لَخلَتْ ذراعِي وانفردتُ فـإن أكُن	تـاجرتُ فيها كنتُ أربحَ تـاجرِ
١٩	ولَئِن حُرِمتُ ولم يَفُزْ قِـدْحي بها	فـأنـا لَعَمرُ اللهِ أخسرُ خـاسرِ
٢٠	مَنْ جـاوزَ السِّتِّينَ لم يَجْمُـلْ بِـهِ	شُغْـلٌ بجُمْـلٍ والربـابِ وغـادرِ
٢١	بَـلْ شُغلـهُ في زادِه لِمَعـادِه	فـالزَّادُ آكَـدُ شُغـلِ كُـلِّ مُسافرِ
٢٢	والشَّيـخُ ليس قَصَـارُه إلا التُّقى	لا أنْ يَهيمَ صَبـابَـةً بجَـآذرِ
٢٣	نَفَرتْ طِبـاعُ الغِيدِ عَنْـهُ كراهـةً	ومِنَ العَنَـاءِ عـلاقَـةٌ بِمُنَـافرِ
٢٤	هَـل يَلْتَقي قِرنٌ بقِرْنٍ في الـوَغى	إلا بِـأزْرَقَ أو بِعَضبٍ بـاترِ
٢٥	وإذا تَقَحَّمَ أعـزلٌ في مَـأزقٍ	كان الأسيرَ ولم يَكُنْ بـالآسرِ

---

(١٢) قضى : مات .

(١٣) في اللسان : الخلب حجاب القلب .

(١٦) غدائر : جمع غديرة وهي الذؤابة .

(١٧) في القاموس : امرأة مقصورة : محبوسة في البيت لا تُترك أن تخرج .

(٢٠) جُمل والرّباب وغادر من أسماء النساء .

(٢٢) قُصَاراك (بالضم) أي جهدك وغايتك ، وأيضاً قَصيراك ، وقَصارك ـ بالفتح ـ .

(٢٤) الأزرق : الرمح ، والعَضب : السيف ، والقِرن : المكافئ .

٢٦ مـا يَشتهي نهـداً ولَحظـاً فـاتراً — إلاَّ خَلِيٌّ في زَمـــانٍ فـــاترِ

٢٧ حَسبِي كتـــابُ اللهِ فهـوَ تَنَعُّمِي — وتَـأنُّسي في وحشتي بـــدفـاتِري

٢٨ أفتضُّ أبكَــاراً بهــا يَغسِلْنَ مَنْ — يَفْتَضُّهُنَّ بكُــلِّ مَعنى طَـــاهرِ

٢٩ وإذا أردتُ نَـزاهـةً طَــالَعتُهـا — فــأجُـولُ منهــا في أنيـقٍ زاهرِ

٣٠ وأرى بها نَهْجَ الهِدايـةِ واضحـاً — يَنجُـو بـهِ مَنْ لَيسَ عنـهُ بجائرِ

٣١ قَـدْ آنَ لي أن أستَفيـقَ وأرعَـوي — لـوأنّني مِمَّن تَصـحُّ بصــائري

٣٢ فَلَكَمْ أروحُ وأغتــــدي في غَمْرَةٍ — مُتردِّداً فيهــا كَمِثْـلِ الحـــائرِ

٣٣ وأرى شَبـابي ظـاعِنــاً في عَسكرٍ — عنّي وشَيْبِي وافــداً بِعَســاكرِ

٣٤ فَغَـــدَتْ مُظَفَّرةً عَليَّ ولَم تــزلْ — قِـدْماً مُعَـلاَّةً قِـداحُ الظَّـافرِ

٣٥ ولقـد رأيتُ منَ الـزَّمـانِ عَجائبـاً — جرَّبتُهــا بمـواردي ومصــادري

٣٦ فـوجـدتُ إخـوان الصَّفـاء بـزعمِهمْ — يلقــاكَ أمْحضُهم بِعَرْضٍ سـابِري

٣٧ ولربّما قـــد شــذَّ منهُم نـــادِرٌ — وأصُــولُنــا : أنْ لا قيــاسَ بِنـادِرِ

٣٨ وإذا نَبــــا بي منزلٌ أو رابَني — صَفَّقْتُ عنـــه كالعُقــابِ الكاسرِ

---

(٢٦) وصف اللحظ بالفاتر ، ويقال : فتر الطَّرف أي انكسر وسجا أو ضعف ضعفاً مستحسناً ، ووصف الزمان بالفاتر : انتقاصاً من الأحوال على زمانه .

(٢٩) النَّزاهة : مصدر نَزه . والمقصود تنزّه : أي خرَج إلى الأرض النَزِهة .

(٣١) ارْعَوى عن كذا : كفَّ وحَسُن رجوعه عنه .

(٣٢) الغمرة من الشيء ، شدّته ، كغمرة الهم والموت .

(٣٤) المُعلّى : سابع قِداح الميسر : له غنم سبعة أنصبة إن فاز ، وعليه غرم سبعة إن لم يفز . والمقصود هنا : القدح الفائز .

(٣٦) السَّابري : ثوب رقيق جيد . ومنه (قيل) : عَرْض سابري لأنه يرغب فيه بأدنى عرض .

(٣٨) صفق الطائر بجناحيه : ضربها (ليطير) .

٣٩ فأَجُوبُ أَرضاً سَهلُها كَحُزونِها … عنـدي وأَوّل قُطْرِهـا كالآخرِ

٤٠ ولقد عجبتُ لِمُؤمنٍ في شِدقِهِ … جَرَسٌ كناقوسٍ ببيعةِ كافرِ!

٤١ لَسِنٍ يُهَيْنِم دائباً ولَما يَرَى … أنَّ اللِّسانَ كمثلِ ليثٍ هاصرِ

٤٢ ولَوَانَّني أدعو الكلام أَجابني … كإجابةِ الْمَأْسُورِ دعوةَ آسرِ

٤٣ لكنْ رأيتُ نَبيَّنا قد عابَهُ … من كُلِّ ثَرثارٍ وأشدقَ شاعرِ

٤٤ فَصَمَتُّ إلاَّ عَن تُقًى ولَرُبَّما … قَذفتْ بحارُ قَريحتي بجواهرِ

٤٥ مَااسْتَحْسَنُوا طولَ الخطابة بل رأوا … تَقصيرَها مَهمَا ارتَقوا بمنابرِ

٤٦ ولَمَا رأوا سَرْدَ الكلامِ بسائغٍ … إلاَّ لعبدٍ قارئٍ أو ذاكرِ

٤٧ فالعِيُّ في الإكثار لا في منطِقٍ … يُهدي إلى الألبابِ نَفثَةَ ساحرِ

٤٨ ولقَد أقولُ لبعضِ مَنْ هو عاذِلي … في القصدِ في شأني وليس بعاذِري

---

(٣٩) في الأصل : قَطرها (بفتح القاف) ، والقُطْر بضمّ القاف : النّاحية .

(٤٠) البِيعة : كنيسة النصارى (وترد أيضاً لكنيس اليهود) : محلّ عبادتهم .

(٤١) الهينمة : الصوت الخفي .

(٤٣) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإنَّ مِنْ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » . قالوا يا رسول الله قد علمنا « الثرثارون » و « المتشدّقون » فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » . ـ رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
والأحاديث المروية في الشعراء ، وفي الشعر ، مشهورة في كتب الأدب .

(٤٥) في زاد المعاد : ١١٧/١ « وكان ﷺ يقصر الخطبة ويطيل الصّلاة ويكثر الذكر ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقول : إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّة من فقهه » والمئنّة : العلامة ، وسبق الكلام على (مهما) في القصيدة [١٠] عند البيت [٣٠] .

(٤٨) العاذل : اللائم ، والعاذر : الذي يجعل لصاحبه (الآخر) عُذراً أو يقبل منه العذر .

٤٩ لَمَّا رأيتُ الأرض أصبحَ ماؤها ... رَنْقاً كَفَتْني منهُ حَسْوَةُ طائرِ

٥٠ وَلَوَانَّني أرْضى القَذا في مَشْرَبي ... لَكَرِعْتُ كرعةَ ظامئٍ بِهَوَاجرِ

٥١ وعَبْرتُ بَحرَ الرِّزقِ ألتَمسُ الغِنى ... حِرْصاً عَلَيْهِ وكنتُ أمهرَ ماهرِ

٥٢ لكنَّني عُوِّضْتُ منهُ عِنايةً ... بِقناعةٍ وَتَجَمُّلٍ في الظَّاهرِ

٥٣ فَمِنَ الغِنى ماقَد يَضُرُّ بأَهلهِ ... والفَقرُ عِندَ اللهِ لَيسَ بضائرِ

٥٤ وَلَقَد أصَبْتُ مِنَ الْمَطَاعمِ حاجَتي ... ومِنَ الملابسِ فوقَ ماهو ساتِري

٥٥ وأنا لَعَمرُكَ مُكرَمٌ في جيرتي ... ومُعَظَّمٌ ومُبَجَّلٌ بعَشائري

٥٦ وغَداً بِمَيدانِ السِّباقِ سَنلتقي ... فَيُرى الثَّقيلُ مِنَ الْخَفيف الضَّامرِ

٥٧ واسَوأتا إن كُنتُ سُكَّيْتاً بهِ ... أرجو اللَّحاقَ على هجينٍ عاثرٍ!

٥٨ والويلُ كلُّ الويلِ لي إن لَمْ يَكنْ ... مولايَ في تلكَ الشَّدائدِ ناصِري

٥٩ إنّي لأشكُرُه على آلائِهِ ... فهو الوَفيُّ بِعَهده للشَّاكرِ

٦٠ وإليهِ أضْرَعُ في إنابَةِ مُخلصٍ ... فهو الَّذي أرجو لِسَدِّ مَفاقِري

---

(٤٩) رنق الماء رنقا : كدر فهو رنق .

ـ حسا الطائر الماء حسواً ، ولا تقل شرب ، والْحُسْوَة (بالضم) الشيء القليل منه .

والْحَسْوة (بالفتح) : المرة من الحسو .

« ويوم كحسو الطير : قصير » .

(٥٠) كرع في الإناء وفي الماء : تناوله بفيه من موضعه .

(٥٦) من اكتنز وتنعّم في الدنيا جاء يوم القيامة في حلبة السِّباق (الحساب ودخول الجنة) ثقيل الحركة . ضرب (السّباق) مثلاً للمكثر والمقلّ والمسيء والمُحسن .

(٥٧) السُّكَّيْتُ (وتُخَفَّف الكاف) آخر خيل الحلبة .

والهجين من الخيل : الذي ولدته برذونة من حصان عربي .

(٥٩) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ سَيَجزي اللهُ الشَّاكرينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَسَنَجْزي الشَّاكرينَ ﴾ من الآيتين [١٤٤ ـ ١٤٥] من سورة آل عمران .

(٦٠) مفاقر : جمع على غير قياس لكلمة الفقر .

[٢٢]

وقال ـ رحمه الله ـ يمدح القاضي ابن توبة(☆) :

[القصيدة في مدح القاضي ابن توبة ؛ وهي في قسمين متتابعين أحدهما : مدخل مطوّل للشاعر فيه نصيب كبير ؛ والثاني : في مدح ابن توبة .

ـ بدأ الشاعر بتفنيد ميل من أدرك الشيخوخة إلى الْحِسان (١ ـ ٣) وذكر حب الحسناء للفتى (٤ ـ ٩) ودعا للبعد عن النساء (١٠ ـ ١٣) وقدم ـ لأولئك الْمُسِنِّين ـ براهين لاتَسْلَمُ (١٤ ـ ١٨) وقارن بين داعي الدنيا من محبة الْحِسان وبين داعي الآخرة (١٩ ـ ٢٠) وبيَّن أنه يقول هذا عن رأي في الإعراض عن النساء وأنّ الزّهد فيهن ليس عن ضعف أو عجز : واستطرد إلى مزايا فيه كثيرة (٢٤ ـ ٢٦) .

ـ وانتقل إلى مدح علي بن توبة بوجوه من معاني المديح الدينيّة والدّنيوية (٢٧ ـ ٣٧) وقال كلاماً في شعره المدحي هذا ووقّر الممدوح توقيراً شديداً (٣٨ ـ ٤٣)] .

(☆) عليّ بنُ توبة : القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن توبة ، من أهل غرناطة . وقال أبو جعفر ابن الزُّبير في ترجمته في كتابه صلة الصلة : كان من العلماء الْجِلّة الفقهاء . ولي قضاء غرناطة لباديس بن حبوس وكان من قضاة العدل ، وإليه تُنسب قنطرة القاضي . وكان كاتِبَهُ الفقيهُ الزّاهد أبو إسحاق الإلبيري ، وفيه يقول :

بعليّ بن تـوبـةِ فـاز قِـدحي وسمت همّتي على الْجَـوزاء

وتوفّي بعد سنة ٤٥٠ أو نحوَها .

(ترجمته في صلة الصلة لابن الزبير : ٧٨ ، وفي الإحاطة : ٨٢/٤) .

ـ وتنظر مقدّمتنا لهذا الديوان (الصفحة : ٩) .

[من الخفيف]

١	مـــا عَنـــاءُ الكَبيرِ بـــالْحَسنـــاء	وَهْـو مِثْـلُ الْحَبـاب فـوقَ المـاء
٢	يَتَصـــابى ولاَتَ حينَ تَصـــاب	بعُيُـونِ الْمَهـــا وسِرْبِ الظِّبـــاء
٣	ولَعَمْري لَما تُحِبُّ فَتـــــــاةٌ	يَفَنـــاً لــوغَـــدا مِنَ الْخُلَفـــاء
٤	وتُحِبُّ الفَتى الرَّقيـــقَ الْحَـــواشِي	حُبَّ ذي الْجَـدْبِ صـادِقَ الأنْـواء
٥	كَيفَ لا وَهْـوَ يَهْنَـأُ النَّقْبَ مِنْهـا	بِهِنـــاءٍ يَـزيـــدُ في البُرَحَـــاء
٦	لَحَكاهـــا لَطـــافَـــةً وحَكَتْـــهُ	فَهُمَـا في الْهَـوى كَمَـزْجِ الْهَـواء !
٧	لا كَصَـــادٍ أنـــاخَ عِنـــدَ قَلِيْب	دُونَ دَلْـوٍ يُـدلي بِـهِ ورِشَـاء !
٨	يَلْحَـظُ الْمَـاءَ حَسرَةً وهـوَ مِنْـهُ	مُتَـدانٍ في حـــالَـةِ الْمُتَنـــائِي
٩	كُــلُّ قِرْنٍ يُعِـدُّ سَيْفـــاً كَليـلاً	لِلقـــاءٍ يَخُـونُـــهُ في اللِّقـــاء

---

(١) يذكّر وزن القصيدة ، ولهجة مطلعها ، بقصيدة الأعشى (الديوان/٣) .

مـــا بُكاءُ الكبيرِ في الأطـــلال　　وســؤالي ومـــا تَرُدُّ ســؤالي

والكبير في القصيدتين : الشيخ ، المتقدم في السن .

(٢) من قولهم : تصابى الشيخ . وفي القاموس : صبا إلى المرأة : حَنَّ ؛ وتَصَبَّتهُ : شاقته ودعته إلى الصبا فحنَّ إليها . وتصاباها : خدعها وفتنها .

(٣) اليَفَن : الشيخ الكبير .

(٤) الرقيق الحواشي من الناس : اللطيف الصُّحبة .

(٥) الأصل في معنى هَنأ : طلا ، وهنأ الإبل بالقطران : طلاها .

وبرحاء الحمى : شدتها . ومعنى البيت بعدُ واضح .

(٧) الصادي : العطشان . والقليب : البئر .

١٠	فَمِنَ الرَّأْيِ أنْ تَكُـونَ جَبَـانـاً	سـامِرِيّـاً يَـدِيْنُ بـالإِنْـزِواءِ
١١	عَجبـاً كَمْ رأيتُ مـالاً مَصُـونـاً	وفُـؤاداً نَهْبـاً بـأيـدي النِّسـاءِ
١٢	وإذا حـازِمٌ علَى المـالِ أَبْقَى	فَقُـواهُ أحَـقُّ بـالإبْقـاءِ
١٣	فَتَسـاوَى الرِّجـالُ في مِثْلِ هـذا	فـالْمَجـانِينُ فيـهِ كالعُقَـلاءِ !
١٤	أيُّ خَيْرٍ لِـوالِـدٍ في بَنِيـهِ	وَهـوَ عَنْهُمْ يَفِرُّ يَـومَ الْجَـزاءِ
١٥	والتَّقِيُّ الْمُـوَفَّـقُ البَرُّ مِنهُمْ	عَـدَمٌ كالسَّماعِ بـالعَنْقـاءِ

(١٠) السامريّ هو الذي أضلَّ قوم موسى ـ في غيابه ـ ودعاهم إلى عبادة العجل . ونقل القرطبي في تفسيره (٢٤١/١١) عن الحسن أنَّ الله تعالى جعل عقوبة السامريّ ألا يُماسّ الناس ولا يماسّوه عقوبةً له ولمن كان منه إلى يوم القيامة . وكأن الله عزّ وجلّ شدّد عليه المحنة بأن جعله لا يماسّ أحداً ولا يمكن أن يمسّه أحد ؛ وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا .

ونقل أيضاً : لمّا قال له موسى : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾ . خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ولا يجد أحداً من الناس يمسّه .

ـ وقد شبّه ابن زيدون نفسه بالسامريّ في تجافي الناس عنه في أيام محنته وسجنه ، فقال عن المُبتعدين عنه نكوصاً أو تَقِيَّةً :

ورأوني سـامريـاً يُتقى منـه المِسَـاسُ !

ـ وقوله : « فمن الرّأي أن تكون جباناً » مأخوذ من بيت لأبي الطيب

وإذا لم يكن من المـوت بُـدٌّ فمن العجـز أن تكـون جبـانـاً

وغيَّر الشاعر المقصد وبعض الكلام .

(١٤) معنى البيت مقتبس من قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [سورة عبس : ٣٣/٨٠ ـ ٣٧] .

(١٥) في القاموس : العنقاء طائر معروف الاسم مجهول الجسم . ونقل الثعالبي في كتابه : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (٤٥٠) عن أبي عثمان الجاحظ : الأمم كلها تضرب المثل بالعنقاء في الشيء الذي يُسمع به ولا يُرى .

١٦ وإذا مـــا الأديبُ شُبِّـــهَ فِيهِمْ جَرَّ أذيَـــالـــةُ مِنَ الْخُيَـلاء

١٧ وازْدَرى بالشُّيوخِ واعترَضَ الـدَّأ... ... مـاءَ جَهـلاً بنَفْثَـةِ الرَّقَّـاء

١٨ ذَنَبٌ أَبْتَرٌ لَعَمْرُكَ خَيْرٌ مِنْ طَـويـلٍ يُجَرُّ في الأَقْـــذاء

١٩ وَمِنَ الغَبْنِ هَجْرُ دارِ خُلــــودٍ وبَقـــاءٍ، ووَصْـلُ دارِ الفَنـــاء

٢٠ واشْتِغَـــــالٌ بِفَرتَنَى وبِلُبْنَى وبِـدَعْـدٍ عَنْ خِطْبَـةِ الْحَـوراء

٢١ ولَئِنْ عـادَ لَيْـلُ رَأْسِيَ صُبْحـاً وَوَشَى بِي شَيْبِي إلى الْحَسْنَـاء

٢٢ إنَّ عُـودي لِعَـاجِمِيْـهِ لَصُلْبٌ وَفُـؤادي كصَـارِمٍ مَضَّـاء

٢٣ وأُقَضِّي لُبـــــــانَتِي وأُرَوِّي عـامِـلَ الرُّمْـحِ مِنْ دَمِ العَـذْراء

٢٤ وأَنَـــا قُرَّةٌ لِعَيْنِ صَـــديقي وَقَـذًى فِي مَحَـاجِرِ الأعـداء

٢٥ هَـذَّبَتْني نَـوائِبُ الـدَّهْرِ حَتَّى صِرْتُ كالوَصْلِ بَعْدَ طُـولِ الْجَفاء

٢٦ فَسَفِينِي تَجْرِي بِـأَطْيَبِ رِيْـحٍ لا بِرِيـحٍ ضَعِيفَـــةٍ نَكْبَـــاء

٢٧ بِعَلِّي بنِ تَـوْبَـةٍ فـازَ قِـدْحِيْ وَسَمَتْ هِمَّتي عَلى الْجَــوْزَاء

---

(١٧) الدأماء : البحر . ورقاهُ رقياً ؛ فهو رقّاء : نفث في عوذته .

(١٨) الأقذاء : جمع القذى وهو التراب المدقق .

(٢٠) فرتنى ، ولبنى ، ودعد ، من أسماء النساء يكثر ذكرهن في أشعار الغزل . والحوراء من الْحور العِين .

(٢٢) عاجم اسم فاعل من عجمَ (العود) إذا عضّه شديداً بالأضراس دون الثّنايا ليعلمَ صلابته .

(٢٣) اللُّبانة : الحاجة .

(٢٤) القُرَّة : كل ماقرّت به عيناك وسُررت به .

ـ القذى : مايقع في العين وما يُرمى به مما يقع في الشراب كالتبن والوسخ .

ـ والمحاجر : جمع محجر (على وزن مَجْلس ومِنْبَر) مادار من العين وما بدا من البُرقع .

(٢٦) النكباء : ريح بين ريحين (كالريح التي بين الصَّبا والشَّمال) .

٢٨ فَهَنِيئـاً لَنـا وللـدِّيْنِ قَـاضٍ مِثْلُـهُ عـالِمٌ بِفَصْـلِ القَضـاء

٢٩ يَحْسُمُ الأَمْرَ بـالسِّيـاسَـةِ والعَـدْ.. .. لِ كَحَسْمِ الْحُسَـامِ لِـلأَعْـداء

٣٠ لَوْ إيـاسٌ يَلْقـاهُ قـالَ اعْتِرافـاً غَلِـطَ الـواصِفُـونَ لي بـالـذَّكاء

٣١ ولَـوَانَّ الـدُّهَـاةَ مِنْ كُـلِّ عَصْرٍ خَبَروهُ دانُـوا لَـهُ بـالـدَّهـاء

٣٢ أو رأى أَحْنَفٌ ـ أَوَاحْلَمُ مِنْـهُ ـ حِلْمَـهُ مـا انْتَمَـوْا إلى الْحُلَمَـاء

٣٣ لَـوْ رَأَى الْمُنْصِفُـونَ بَحْرَ نَـدَاهُ جَعَلُـوا حـاتِماً مِنَ البُخَـلاءِ !

٣٤ هُـوَ أَوْفَى مِنَ السَّمَـوْأَلِ عَهْـداً ولَما زالَ مُغْرَمـاً بـالـوَفـاء

٣٥ وحَيـا الْمُـزْنِ ذوحَيـاءٍ إذا مـا هَمَلَتْ كفُّـهُ بِـوَبْلِ العَطـاء

٣٦ يَشْهَـدُ العـالِمـونَ في كُـلِّ فَنٍّ أَنَّـهُ كالشِّهـابِ في العُلَماء

٣٧ وقُضـاةُ الـزَّمـانِ أَرْضٌ لَـدَيْـهِ وهـوَ مِن فَـوقِهِمْ كأُفـقِ السَّماء

٣٨ لَتعرَّضْتُ مَـدْحَـهُ فكأنِّي رُمْتُ بَحْراً مُسـاجِـلاً بـالـدِّلاء

٣٩ فَـأَنـا مُفْحَمٌ على أنَّ خَيْلي لا تُجـارَى في حَلْبَـةِ الشُّعراء

٤٠ لَكَسـاني بِمَجْـدِهِ ثَـوْبَ فَخْرٍ طـالَ حَتَّى جَرَرْتُـهُ مِنْ وَرائي

---

(٣٤) اشتهر في التـاريخ العربي ـ فيما اشتهر ـ حِلم الأحنف بن قيس ، كرَمُ حـاتم الطّـائي ، و إياس وذكاؤه ، ووفاء السَّموأل .

(٣٥) الحيَا : الْمَطر ، وهمل المطر : انصبَّ .

(٣٨) ساجله : باراه في استقاء أو في شرفٍ (وأصلـه في الاستقـاء وذلـك بـأن يستقي السـاقيـ فيخرج كلٌ في سجله مثلما يخرج الآخر فأيهما انقطع فقد غُلب ، ويُقال ذلك في المفاخرة ـ والدلاء : جمع الدلو .

(٣٩) أفحمه : أسكته في خصومه .

٤١ وَلَـوَ ٱنْصَفْتُـــهُ ـ وذاكَ قَليـــلٌ ـ كانَ خـــدِّي لرِجْلِـهِ كالْحِـــذاء
٤٢ فــأَنــا عَبْـدُهُ ـ وذاكَ فَخــاري، وجَمالي بَيْنَ الـوَرى وبَهـــائِي
٤٣ وثَنـــائي وَقْفٌ عَلَيْـــهِ وشُكْرِي ودُعَـــائي لَـــهُ بِطُـولِ البَقَـــاء

---

(٤١) يتوجَّهُ الكلامُ على حِدَّته وشدّته على مَحْمَلِ المبالغة في توقير هذا القاضي الـذي تعرَّض لهجـاء بعض الشّعراء ، وإلى حملة رُفعت فيها العرائض إلى السلطة ضدّه .
فهي قناعةٌ من الشاعر ونوعٌ مُسرف من التفدية والنكاية بالْخُصوم .

[٢٣]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ(☆) :

[في القصيدة تصويرٌ لمشاهد من عذاب أهل النار (١ ـ ١٣) وتفرقة بين من ينجو وبين من يكون من أهل النار (١٤ ـ ١٥) وتحذيرٌ مِن نار جهنّم ودعوة للنجاة (١٦ ـ ١٨) وتعجب ممن لا يحفلون بالمآل إليها (١٩ ـ ٢١) ثم حديثٌ عن القلة الألِبّاء يَفِرُّون إلى الله ، ويَهجرون الدنيا الخادعة وجزاؤهم على ذلك (٢٢ ـ ٢٥) .

ويَضرب الشاعر من نفسه المَثَل ؛ في طلب الخوف من النار والتفكير في عذابها والنَّجاة من مهاوي الدنيا (٢٦ ـ ٣١) ويُحَذِّرُ بلهجة خطابية (٣٢ ـ ٣٤) ويختم بوقفةٍ شخصيّة (٣٥ ـ ٣٨)] .

[من السَّريع]

١ وَيْلٌ لأَهْلِ النَّارِ في النَّارِ ... ماذا يُقاسونَ مِنَ النَّارِ

٢ تَنْقَدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلي بِهِمْ ... كَمِرجَلٍ يَغْلي على النَّارِ

(☆) في شعر محمد بن يسير الرياشيّ (معجم الشعراء : ٢٥٣) :

ويلٌ لمن لم يرحمِ اللهُ ... ومن تكون النارُ مثواهُ

من طال في الدنيا به عمره ... وعاش فالموتُ قُصاراهُ

كأنَّه قد قيل في مجلس ... قد كُنْتُ آتيه وأغشاهُ:

صار اليَسيريُّ إلى ربّهِ ... يَرْحَمُنا اللهُ وَإيّاهُ!

وهي قطعة تذكّر بقصيدتي الإلبيري ، السابقة [١٥] وهذه القصيدة .

(٢) يقال : قدّه ، فانقدَّ : أي شقّه فانشقّ .

=

٣	فَيَسْتَغيثُــونَ لكَي يُعْتَبــوا	ألا لَعــاً مِنْ عَثْرَةِ النَّــارِ
٤	وكُلُّهم مُعْتَرِفٌ نــــادِمٌ	لَـوْ تُقْبَـلُ التَّـوبَـةُ في النَّـارِ
٥	يَهْـوي بِهـا الأَشْقى عَلى رَأْسِـهِ	فـالـوَيْـلُ لـلأَشْقى مِنَ النَّـارِ
٦	فَتـارَةً يَطْفـو على جَمْرِهـا	وتـارَةً يَرْسُبُ في النَّـارِ
٧	وكُلَّما رامَ فِراراً بِهــا	فرَّ منَ النَّـارِ إلى النَّـارِ
٨	يَطـوفُ مِنْ أَفْعى إلى أَرْقَمٍ	وسُمُّهـا أَقْـوى مِنَ النَّـارِ
٩	وكَمْ بِهـا من أرقَمٍ لا يَني	يَلْسَـعُ مَنْ يُسْحَبُ في النَّـارِ
١٠	لا راحَـةٌ فيهـا ولا فَتْرَةٌ	هَيْهـاتَ لا راحـةَ في النَّـارِ
١١	أَنْفـاسُهـا مُطبَقَـةٌ فـوقَهُمْ	وهكـذا الأَنفـاسُ في النَّـارِ
١٢	سُبْحـانَ مَنْ يُمسِـكُ أَرواحَهُم	في الـدَّرَكِ الأَسْفَـلِ في النَّـارِ
١٣	ولـو جِبـالُ الأَرْضِ تَهْـوي بهـا	ذابَتْ كـذَوْبِ القِطْرِ في النَّـارِ
١٤	طُـوبى لِمَنْ فـازَ بِـدارِ التُّقى	ولم يَكُنْ من حَصَبِ النَّـارِ

= وفي سورة الملك [٨/٦٧] في صفة جهنم : ﴿ تَكادُ تَميَّزُ من الغيظِ كُلّما أُلقيَ فيها فوجٌ سَألَهم خَزَنَتُها أَلَمْ يأتِكم نَذير ﴾ أي تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة الغضب .

(٣) في سورة الكهف [٢٩/١٨] : ﴿ وَقل الحق من رَبِّكم فَمن شاء فَليُؤمِنْ ومَن شـاءَ فَلْيَكْفُر إنّـا أَعْتَدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها وإن يَستَغيثوا يُغاثوا بمـاءٍ كالْمُهْلِ يَشوي الوُجوهَ بئسَ الشَّرابُ وساءَت مُرتَفَقاً ﴾ .

(٥) سورة الليل [١٤/٩٢ـ١٥] : ﴿ فَأنذرتُكُمْ ناراً تَلَظّى . لا يَصْلاها إلاَّ الأَشْقى ﴾ .

(٨) الأرقَم : ذَكَرُ الْحَيّات ، أو أخبثُها .

(٩) يقال : فلان لا يني يفعل كذا : أي لا يزال .

(١٣) القِطرُ : النحاس الذائب أو ضرب منه .

(١٤) الحصَبُ : مـا يُرمى بـه في النـار حصب أو لا يكون الحطب حصبـاً حتى يُسجر . وفي سـورة الأنبياء [٩٨/٢١] قوله تعالى : ﴿ إنَّكم وما تَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ .

١٥ وويـــلُ مَنْ عُمِّرَ دَهْراً ولم يُرْحَمْ ولم يُعتَقْ مِنَ النَّارِ
١٦ يا أيُّها النَّاسُ خُذوا حِذْرَكُمْ وحَصِّنوا الْجَنَّةَ للنَّارِ
١٧ فإنَّها مِنْ شَرِّ أَعْدائِكُمْ ما في العِدا أَعْدى مِن النَّارِ
١٨ وأَكْثِروا مِنْ ذِكْرِ مَوْلاكُمُ فَذِكْرُهُ يُنْجي مِنَ النَّارِ
١٩ واعَجَباً مِنْ مَرِحٍ لاعِبٍ يَلْهو ولا يَحفِلُ بالنَّارِ
٢٠ يوقِنُ بالنَّارِ ولا يَرْعَوي كأنَّهُ يَرْتابُ في النَّارِ
٢١ وَهوَ بِها في خَطَرٍ بَيِّنٍ لو كاسَ ما خاطَرَ بالنَّارِ
٢٢ إنَّ الأَلِبَّاءَ هُمُ قِلَّةٌ فَرُّوا إلى اللهِ مِنَ النَّارِ
٢٣ وطَلَّقوا الدُّنيا بَتاتاً ولمْ يَلْوُوا عَلَيْها حَذَرَ النَّارِ
٢٤ وأَبْصَروا مِنْ عَيْبِها أَنَّها فَتَّانَةٌ تَدْعو إلى النَّارِ
٢٥ فَطابَتِ الأَنْفُسُ مِنْهُمْ بِأَنْ أَمَّنَهُمْ مِنْ فَزَعِ النَّارِ
٢٦ واللهِ لو أَعْقِلُ لَمْ تكتَحِلْ بالنَّوْمِ عَيْني خيفَةَ النَّارِ
٢٧ ولا رَقا دَمْعي، ولا عِلْمَ لي أَنِّيَ في أَمْنٍ مِنَ النَّارِ
٢٨ ولم أَرِدْ ماءً ولا ساغَ لي إذا ذَكَرْتُ الْمُهْلَ في النَّارِ

(١٦) سورة النساء [٧١/٤] : ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمَنوا خُذوا حِذْرَكُمْ فانْفِروا ثُباتٍ أو انْفِروا جَميعاً ﴾ .

(٢١) الكَيْسُ ـ مصدر : كاسَ ـ العقلُ ، والجود ، والغلبة بالكياسة .

(٢٢) الألِبّاء : جمع لبيب ؛ وهو الفَطِنُ الذكيّ .

(٢٣) بَتَّ الطَّلاقَ وأَبَتّه : أوقعه ثلاثاً باتّاً ؛ وقد سبق في القصيدة الأولى ، البيت الثالث .

(٢٤) في سورة الحديد [٢٠/٧٥] : ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرور ﴾ .

(٢٧) رقأ الدمعُ والدَّمُ ونحوُهما : سكن وجفَّ وانقطع بعد جريانه .

(٢٨) الْمُهْلُ : الْمَعْدِنُ الْمُذابُ .

٢٩ ولم أَجِــــدْ لـــــذَّةَ طعْمٍ إذا فَكَّرْتُ في الـزَّقُّـوم في النَّـــارِ
٣٠ أَيُّ الْتِـــــذاذٍ بنَعيمٍ إذا أدّى إلى الشّقْـوَةِ في النَّـــارِ
٣١ أَمْ أَيُّ خَيْرٍ في سُرورٍ إذا أَعْقَبَ طـولَ الْحُـزْنِ في النَّــارِ
٣٢ فَفكِّروا في هَـوْلِهـا واحْـذَروا مـا حَـذَّرَ اللهُ مِنَ النَّــارِ
٣٣ فـإِنَّهـا راصِـدَةٌ أَهْلَهـا تَـدُعُّهُمْ دَعّـاً إلى النَّــارِ
٣٤ فَلَيْسَ مِثْلِي طـالِبـاً حَبَّـةً إلاَّ الْمُعـافـاةَ منَ النَّــارِ
٣٥ وطـالَما استَرْحَمتُـهُ ضـارِعـاً يـا رَبُّ حرِّمْني على النَّــارِ
٣٦ فَـأَنْتَ مَـوْلايَ ولا رَبَّ لي غَيْرُكَ؛ أَعْتِقْني مِنَ النَّــارِ
٣٧ ولم تَـزَلْ تَسْمَعُني قـائِـلاً: أَعـوذُ بـاللهِ مِنَ النَّــارِ

---

(٢٩) في سورة الدّخان [٤٤/٤٣ـ٤٦] : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعامُ الأَثيمِ . كالْمُهْلِ يَغْلِي في البُطونِ كَغَلْيِ الْحَميمِ ﴾ .

(٣٣) الدَّعُّ : الدَّفْعُ العنيف .

(٣٤) كذا في الأصل المخطوط : « طالباً حَبَّةً » مضبوطة مشكولة ؛ ويتوجّه لي أن أقرأها : « طالباً جَنَّةً » .

[٢٤]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[أبصر أول شعرة بيضاء فارتاع لذلك ، وأنذر نفسه بالموت ونصحها بألا تستهين بالشيب ولو كان في شعرة واحدة (١ ـ ٢) وضَرب مثلاً من الطلّ والمطر الغزير (٣) والصُّبح الذي يبدأ بخيط أبيض ثم يطوي سوادَ اللّيل (٤) فنذيرُ الشَّيب يُؤذن بالأُفول ويؤثر في قوة المرء ويحجبه عن نشاط الشّباب (٥ ـ ٩) .

وطلَب لزوم باب الله والإخلاص له تعالى (١٠ ـ ١١)] .

[من الوافر]

١ بَصُرْتُ بِشَيْبَةٍ وخَطَتْ نَصيلي ... فَقُلْتُ لَهُ تأهَّبْ للرَّحيلِ

٢ ولا يَهُنِ القَليلُ عليكَ مِنْها ... فَما في الشَّيْبِ وَيْحَكَ من قَليلِ!

---

(١) بَصُرَ بالشيء : رآه . ويقال (بَصُر بالشيء) إذا انضمت رؤية القلب إلى رؤية العين . ومعنى وخطه الشيبُ : خالطه . والنَّصيل في القاموس : الحنك ، وفي أساس البلاغة : هو المفصَل بين الرأس والعنق من تحت اللحيين .
رأى الشاعر شيبة ظهرت في جانب رأسه وهو أول ما يظهر الشيب فيه عادة فخاطب نفسه حينئذ ، وقال لها : تأهبي للموت ... إلخ .
وفي البيت التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ؛ والمقصود واحد هو الشاعر نفسه . وفي بهجة المجالس ٢١١/٢ رأى إياس بن قتادةَ شعرةً بيضاء في لحيته ، فقال : أرى الموتَ يطلبني ، وأُراني لاأفوته . أعوذ بك يا ربّ من فجأة الموت . يا بني سعد ! قد وهبتُ لكم شبابي فهَبوا لي شيبي !

(٢) هان عليه الأمر : كان يسيراً لا أهمية كبيرة له .

٣ وكم قَـدْ أبْصَرتْ عَيْنـاكَ مُـزْنـاً | أصـابَـكَ طَلُّهـا قَبْـلَ الْهُمـولِ
٤ وكَمْ عـايَنْتَ خَيْطَ الصُّبْحِ يَجْلـو | سـوادَ اللَّيْـلِ كالسَّيْفِ الصَّقيـلِ
٥ ولا تَحقِرْ بِنُـذرِ الشَّيْبِ واعلَمْ | بـأنَّ القَطْرَ يَبْعَثُ بـالسُّيـولِ
٦ فكَمْ مِمَّنْ مَفـارِقُـهُ ثَغـامٌ | وأَنْجُمـهُ على فَلَـكِ الأُفـولِ
٧ تَعَـوَّضَ مِنْ ذِراعِ الْخَطْـوِ فِتْراً | ومِنْ عَضْبٍ بِمَفْلـولٍ كَليـلِ
٨ فكَيْفَ بِمِثْلِـهِ لِمَهـاةِ رَمْـلٍ | كَـأَنَّ وِصـالَهـا نـومُ العَليـلِ
٩ تَطَلُّبُ غَيرِ مـا في الطَّبْـعِ صَعبٌ | عَليـكَ، فَـدَعْ طِلابَ الْمُسْتَحيلِ!
١٠ ولازِمْ قَرْعَ بـابِ الرَّبِّ دَأبـاً | فـإنَّ لُـزومَـهُ سَبَبُ الـدُّخـولِ
١١ فَما مِنْ مُخْلِصٍ للهِ إلاّ | على أعْمالِـهِ أثَرُ القَبـولِ

---

(٣) المزن (جمع المزنة) : السّحاب ذو الماء . والطلّ : المطر الضعيف أو أخفُّ المطر . وهملت السماء : دام مطرها في سكون وضعف .

(٥) نُذُر : جمع نذير ، وهو المنذر والحذَر . ونص المخطوطة (ولا تحقر بنذر الشيب) .
وفي الشريشي (ولا تحقر بنور الشيب) ولم أجد من عدّى فعل حقر بالباء ؛ ولكن الشاعر ضمن فعل حقر معنى فعل ازدرى أو أزرى .

(٦) الثّغام (واحدته ثغامة) : نبتٌ أخضر ذو ساق يبيضّ ابيضاضاً شديداً إذا يبس . يُشبَّهُ به الشيب .
ـ ويقال في الفعل : أثْغَم الرأسُ : صار كالثّغامة بياضاً .

(٧) أي كبِر فضَعُف وتقارَب خَطْوُه . والعَضْبُ (في الأصل) صفةٌ للسيف وما يُشبهه : وهو القاطع ، والمفلول : المثلوم ، والسيف الكليل : الذي ينبو ولا يقطع .
ـ والكلام في البيت على المجاز ،

(٨) المهاة : البقرة الوحشية البيضاء . تشبّهُ المرأة الحسناء بها .

(٩) والبيت في المقصد العام كقول أبي الطيب : (وتأبى الطباع على الناقل) .

[٢٥]

وقـال ـ رحمـه الله ـ يخـاطب صنهـاجـة(☆) إذ كان اليهودي النَّغراليُّ ـ لعنـه الله ـ وزيراً وكاتباً لباديس بن حبُّوس صاحب أغرناطة :

[يبـدأ الشـاعر بتنبيـه صنهـاجـة على خطـأ أميرهم (١ ـ ٣) لاختياره ابن النغريلة الـذي فضل قومـه على المسلمين وظلمهم ٤ ـ ٦) وتحميل بـاديس المسؤوليـة (٧ ـ ١٠) ومـا يستحق الوزير وقـومـه من المعاملة بسبب أفعالهم (١١ ـ ١٥) وخطاب لباديس نفسـه (١٦ ـ ١٨) وتبصير له بصنيعهم ومكايدهم عامة وللنغريلي خاصة (١٩) وتـذكير لـه بأفكار شرعية (٢٠ ـ ٢١) وبيـانـه لمفاسـد يهود (٢٣ ـ ٢٤) واستثـارة بمـواطن الخير في بـاديس (٢٥ ـ ٢٦) وسرد لتجربـة الشـاعر معهم ومشـاهـداتـه (٢٧ ـ ٣٥) ووقفـة عنـد النغريلي وطغيـانـه وإسرافـه (٣٦ ـ ٣٧) وسـوء نيتـه (٣٨ ـ ٣٩) وتحريض مبـاشر للتخلص من النغريلي وقـومـه (٤٠ ـ ٤٧) وتـوجيـه بـاديس إلى تقوى الله (٤٨) وأحكام شرعه] .

(☆) صنهـاجـة : جِيلٌ ضخمٌ من البَربر من بُطون البَرانِس كان لهم شـأنٌ سيـاسيٌّ كبيرٌ في المغرب والأندلس . وتفرّع من صنهاجة فروع كثيرة قُدّرت بنحو سبعين بطناً .
ـ والنّغرالي : هو يوسف بن إسماعيل بن النّغريلة : خَدم دَولـة بني زيري بعـد أبيـه إسماعيل وقويَ نفوذُه ، ومكّن لبني جِلدته ، وأسـاءَ السّيرة في العـامّـة وأسـاء إلى الْمُسلمين بـالكلام في القُرآن . ولكنّه أرضى باديس صاحب غَرْناطة بكفاية الجِباية ووفرتها !
ـ وأسهم الإلبيريّ وغيرهُ من الفُقَهاء والعُلَماء وأهل الرأي في كشف تآمر ابن النّغريلة وضُلوعـه في اغتيال ابن الأمير بُلُقّين بن بادِيْس (وكان بُلُقّين يكره ابن النغريلة ودسائسه) واشتعلت

[من المتقارب]

١	أَلا قُـلْ لِصِنْهـاجَـةٍ أَجْمَعينْ	بُـدورِ النَّـدِيِّ وأُسْـدِ العَرينْ
٢	لقـدْ زلَّ سَيِّـدُكُمْ زَلَّـةً	تَقرُّ بِهـا أعيُنُ الشَّـامِتينْ
٣	تَخيَّر كاتِبَـهُ كافِراً	ولـو شـاءَ كانَ مِنَ الْمُسلمينْ
٤	فعـزَّ اليَهـودُ بـهِ وانْتَخَـوا	وتـاهـوا وكانـوا مِنَ الأَرْذَلينْ
٥	ونـالـوا مُنـاهُمْ وجـازوا الْمَـدى	فحـانَ الهَـلاكُ ومـا يَشْعُرونْ
٦	فكَمْ مُسْلِمٍ فـاضـلٍ قـانِتٍ	لأَرذَلِ قِردٍ مِنَ الْمُشركينْ
٧	ومـا كانَ ذلِـكَ مِنْ سَعْيِهِمْ	ولكنَّ مِنّـا يقـومُ الْمُعينْ

ثورةً في غرناطة ضد ابن النغريلة ورهطه انتهت بالقضاء عليه ، والتخلّص منه .

ـ وباديس بن حَبُّوس : أمير غرناطة بعد أبيه حَبُّوس . ولي سنة ٤٢٨ وتلقب بالمظفّر بالله الناصر لدين الله . كتب له إسماعيل بن النغريلة ثم ابنُه يوسف فتمكن اليهود في غرناطة وعاثوا وبَغَوا . ولَمّا انكشف لباديس غدر ابن النغريلة بابنه ومُشاركته في مؤامرة للإطاحة به لمصلحةِ ابن صُمادِح صاحب الْمَرِيَّة ؛ سمع من الإلبيري وغيره ، وأذْعَن لِهَيْجِ العامّة الذين قَتلوا ابن النغريلة ونفراً من قومه .

وكان باديس شديداً صارماً ، بالغ السطوة أحياناً ، وتوفي سنة ٤٦٥ .

ـ أغرناطة : حاضرةُ كورة إلبيرة وعاصمة دويلة بني زيري . كبرت بعد خراب إلبيرة وحلت محلها في المنطقة (يُقال فيها غَرْناطة وأَغرناطة) .

(١) النَّدِيّ : مجلسُ القوم ، ومُتَحدَّثهم ماداموا فيه ؛ والندي تطلق على أهل المجلس .

(٤) انتخى : افتخر وتعاظم .

(٦) قَنَتَ للهِ : أطاعه : أو أطاعه في خَشوع وخضوع .

وقول الشاعر « لأَرْذَلِ قِرْدٍ من الْمُشركين » هجاء لليهود فقد كان قومٌ من أسلافهم اعْتَدَوْا في السَّبت فعوقبوا بأن مُسِخوا قِرَدَةً خاسئين . قال تعالى في سورة البقرة [٦٥/٢] : ﴿ ولَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذينَ اعْتَدَوْا مِنْكُم في السَّبت فَقُلْنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئينَ ﴾ .

٨	فهَـلاَّ اقْتَـــدى فِيهِمُ بــــالأُلى	من القـــــادَةِ الخِيرَةِ الْمُتَّقِينْ
٩	وأنْــزَلَهُمْ حَيْثُ يَستــــاهِلُــونَ	وَرَدَّهُمُ أَسفَــلَ السَّـــــافِلِينْ
١٠	وطــافُــوا لَــدَيْنــا بــأَخْراجِهِمْ	عَلَيهِمْ صَغـــارٌ وذُلٌّ وهُـــونْ
١١	وقَمُّــوا الْمَـزابِـلَ عَنْ خِرْقَـــةٍ	مُلَــوَّنَـــةٍ لِــدِثـــارِ الــدَّفِينْ
١٢	ولَمْ يَستَخِفُّــوا بــــأَعْـلامِنـــا	ولم يَستَطِيلُـوا على الصَّـــالِحِينْ
١٣	ولا جــالَسُـوهُم وهُمْ هُجْنَــةٌ	ولا واكَبُـــوهُم مـــعَ الأَقْرَبِينْ
١٤	أَبــادِيسُ أَنتَ ٱمْرُؤٌ حــــاذِقٌ	تُصِيبُ بِظَنِّــــــكَ نَفْسَ اليَقِينْ
١٥	فَكَيفَ ٱختَفَتْ عَنــكَ أَعيــانُهُمْ	وفي الأَرضِ تُضْرَبُ مِنهـــا القُرونْ
١٦	وكَيْفَ تُحِبُّ فِراخَ الــزِّنـــا	وهُمْ بَغَّضُــوكَ إلى العـــالَمِينْ
١٧	وكيفَ يَتِمُّ لـــــكَ الْمُرْتَقى	إذا كُنْتَ تَبْني وهُم يَهْــدِمُــونْ
١٨	وكيفَ اسْتَنَمْتَ إلى فـــاسِقٍ	وقــارَنْتَــهُ وهــو بِيْسَ القَرِينْ

(٩) يستاهلون على تسهيل الهمزة . وفي الشطر الثاني اقتباس قرآنيّ .

(١٠) الأخراج : جمع الْخَرْج ، أصله اسم ما يخرج من الأرض وجملة معناه : الغَلّة ، ثم استُعمل في منافع الأملاك وريع الأرض ، وغلّة العبيد ، والحيوانات . والْخَرْج : الضَّريبة على الرُّؤوس وعلى الدخل . والشاعر يشير إلى الآية الكريمة ﴿ حَتّى يُعْطوا الجزيةَ عن يَدٍ وهُمْ صاغِرون ﴾ [التوبة ٢٩/٩] .

(١١) قَمّ البيت : كنسه .

(١٢) الأعلام : ج علم : سيّد القوم : والمقصود أعلام المسلمين الذين تعرضوا للاستخفاف من ابن النغريلة ورهطه .

(١٣) الْهُجنة : ما يُعاب : ويلزمُ أحدهم من العيب ، والْهُجنَة في النَّسب كرمُ الأب مع عدم كرم الأم ، وعكسه الغُرْفَة .

(١٦) الفراخ جمع الفرْخ : وهو ولد الزّنا !

(١٨) استنام لكذا : سكن إليه سكون النائم .

ـ وقوله بيس : أي بئس : سَهّلت الهمزة .

١٩ وقـــدْ أنـــزلَ اللهُ في وَحْيِـــهِ يُحَـــذِّرُ عَن صُحْبَـــةِ الفـــاسقينْ
٢٠ فـلا تَتَّخِـــذْ مِنْهُمُ خـــادِمـــاً وذَرْهُم إلى لَعنَـــــةِ الـــلاَّعِنينْ
٢١ فقـــد ضَجَّتِ الأَرضُ مِنْ فِسقِهِمْ وكادَتْ تَميـــدُ بِنـــا أَجْمَعينْ
٢٢ تَـــأَمَّــلْ بِعَيْنَيْــكَ أَقْطـــارَهـــا تَجِـدْهُمْ كِـلاباً بِهـا خـاسِئينْ
٢٣ وكيفَ انفَرَدْتَ بِتَقريبِهِمْ وهُم في البِـلادِ مِنَ الْمُبعَـــدينْ
٢٤ عَلى أَنَّـــكَ الْمَلِـــكُ الْمُرتَضى سليـلُ الْمُلـوكِ مِنَ المـاجِـدينْ
٢٥ وأَنَّ لـــكَ السَّبْـقَ بَيْنَ الـوَرَى كما أَنتَ مِنْ جِلَّـــةِ السَّـــابِقينْ
٢٦ وَإنّي احتَلَلْتُ بِغَرْنـــاطَـــةٍ فكُنتُ أَراهُمْ بِهـــا عـــابِثينْ
٢٧ وقَـــد قَسَّمـوهـــا وأَعمـــالَهـــا فَمِنهُمْ بِكُـــــلِّ مَكانٍ لَعينْ
٢٨ وهُمْ يَقبِضـونَ جِبـــايـــاتِهـــا وهم يَخضِمـــونَ وهُم يَقضِمـــونْ

---

(١٩) وفي سورة التوبة [٩/٩٦] : ﴿ يَحْلِفونَ لَكُمْ لِتَرْضَوا عَنْهُم فإنْ تَرْضَوا عَنْهُم فإنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ القَوْمِ الفاسِقين ﴾ .

(٢٠) يعني الخدمة الإداريّة والسّياسية . والشاعر يذكّر باديسَ بحكم الله في اتّخاذه ابنَ النغريلة من دون المؤمنين ، وذلك أنّ الله تعالى قال : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤمِنُونَ الكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران ٣/٢٨]

(٢٦) احتللت بغرناطة : أي نزل فيها واتخذها دار إقامة بعد نزوحه عن إلبيرة .

(٢٨) الْخَضْمُ : الأكل بأقصى الأضراس ، والقَضْمُ : الأكل بأدناها . وفي حديث أبي ذرّ رضي الله عنه : « تأكلون خضماً ونأكل قضماً » . وفيهما كناية عن الأكل الطيب الطري والأكل الجاسي من ذي التقشف .

يقول : أكل اليهود الأخضر واليابس ولم يُبقوا لنا شيئاً !

٢٩ وهُم يَلبِسونَ رفيعَ الكُسا | وأَنْتُمْ لأَوْضَعِها لابِسونْ
٣٠ وهُم أُمَناكُمْ على سِرِّكُمْ | وكيفَ يَكونُ خَؤونٌ أَمينْ ؟
٣١ وَيَأْكُلُ غيرُهُم دِرْهَماً | فيُقْصى، ويُدنَوْنَ إذْ يأكلونْ
٣٢ وقَدْ ناهَضوكُمْ إلى رَبِّكُمْ | فَما تَمْنَعونَ ولا تُنكِرونْ
٣٣ وقد لابَسوكُمْ بِأَسْحارِهِمْ | فَما تَسمَعونَ ولا تُبْصِرونْ
٣٤ وَهُمْ يَذبَحونَ بِأَسْواقِها | وأَنتُمْ لأطرافِها آكِلونْ
٣٥ وَرَخَّمَ قِرْدُهُمْ دارَهُ | وأَجْرى إلَيها نَميرَ العُيونْ
٣٦ فصارَتْ حوائِجُنا عِندَهُ | ونَحْنُ على بابِهِ قائِمونْ
٣٧ وَيَضْحَكُ مِنّا ومِنْ دينِنا | فإِنّا إلى رَبِّنا راجِعونْ
٣٨ وَلَوْ قُلتَ في مالِهِ إنَّهُ | كَمالُكَ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينْ

---

(٢٩) الكُسا جمع الكُسْوَةَ (بضم الكاف وكسرها) ، وهي اللباس .

(٣٠) أُمَناكم : أي أمناؤكم .

(٣١) أكل المال بالباطل : صَرفه إلى ما يُنافي الْحَقّ .

(٣٢) ناهضه : قاومه .

(٣٣) يقولون إن ابن النغريلة ورهطه خدعوا صنهاجة وأهل غرناطة والأمير بما برعوا فيه من عمل السِّحر أو جعل مخادعتهم كالسِّحر .

(٣٤) قوله ـ بأسواقها ـ يعني : بأسواق غرناطة .

(٣٥) رخَّم الدَّار : جعلَها من الرُّخام (وما يُشبهه ممّا يزين به وتَكْثُر نفقته) .

(٣٧) كان ابن النغريلة قال كلاماً استخفافياً بالقرآن الكريم والإسلام وتصدّى له العُلماء والفقهاء وردّوا عليه أقواله وسخافاته . وقد بقي في الكتب بقايا من تلك الوقفة أهمّها كتاب الإمام ابن حزم في الردّ على ابن النغريلة (راجع مقدمة المحقق ص ١٤ ـ ١٥) .

(٣٨) يُريد : إن مال هذا الوزير المخادع من مالك (مال الدَّولة) فلا جناح عليك في أن تردّه إلى مَعْدِنه .

٣٩ فَبــادِرْ إلى ذَبْحِـهِ قُرْبَـةً وضَـحِّ بـهِ فهـوَ كَبشٌ سَمين !

٤٠ ولا تَرْفَـعِ الضَّغْـطَ عَنْ رَهْطِـهِ فقـد كَنَـزوا كُـلَّ عِلْـقٍ ثَمينْ

٤١ وفَرِّقْ عِـداهُم وخُـذْ مـالَهُمْ فـأنتَ أحَـقٌّ بِما يَجْمَعـونْ

٤٢ ولا تَحْسِبَنْ قَتلَهُمْ غَـدْرَةً بَـلِ الغَـدْرُ في تَرْكِهِمْ يَعْبَثـونْ

٤٣ وقَـدْ نَكَثـوا عَهـدَنـا عِنـدَهُمْ فكَيْفَ تُـلامُ عَلى النّـاكِثينْ ؟

٤٤ وكيفَ تكـونُ لَهُمْ ذِمَّـةٌ ونحنُ خُمـولٌ وهُمْ ظـاهِرونْ ؟

٤٥ ونحنُ الأذِلَّـةُ مِن بَينِهِمْ كأنّـا أسَـأْنـا وهُم مُحْسِنـونْ !

٤٦ فَـلا تَرْضَ فينـا بِـأفْعـالِهِمْ فـأنْتَ رَهينٌ بِما يَفعلـونْ

٤٧ وراقِبْ إلهَـكَ في حِـزْبِـهِ فحِـزْبُ الإلَـهِ هُمُ الغـالِبـونْ

---

(٣٩) استفادَ الشاعر من معنى التَضحية اللغوي والشَرعي .

(٤٠) العلْق : النَفيس .

(٤١) أي وفرقهم بعد تجمَعهم وتكالبهم فإنهم عدأ .

(٤٢) يقول : نقضوا الذمّة فكافئهم بما نقضوا .

(٤٣) نكث العَهْدَ (والْحَبْلَ والعَقْد) : نقضه .

(٤٤) خمول : أي خاملون .

(٤٥) يصف عسف الوزير ومن استخدمه من قومه .

(٤٦) أي باديس يحمل الأوزار التي يقترفها ابن النغريلة وجماعته .

(٤٧) في سورة المائـدة [٥٦/٥] : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسولَهُ والَّذينَ آمَنوا فَإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبونَ ﴾ .

[٢٦]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[عاش الإلبيري مدة طويلة من حياته (بعد الشباب الأول) في ظِلِّ الفتنة التي أودت بالدولة الأموية . وظِلِّ دُوَيلات الطوائف التي : تَناهبت الأندلسَ وقسمتها ، وتَهاوَن زعماؤها مع العدوّ الشرس . وعدَّ الإلبيريُّ تلك الأيام من أيام الفِتن (يراجع البيت الأول وشَرْحُه) . ورأى أن أُولي العلم من المسلمين آنذاك تنبهوا لذلك الأبيات (١ ـ ٣) وكانوا في مراكز مختلفة كلها صالح نافع ملائم : فبعضُهم عالم عامل (٤ ـ ٦) وبعضهم منقطع إلى الجهاد يقاتل العدوّ عن صِدق نيّة وخُلوص إيمان (٧ ـ ٨) وبعضهم عابدٌ منقطع عن النّاس غير خائض في الفتن (٩ ـ ١٢) وبعضُهم منقطع في رُؤوس الجبال (١٣ ـ ١٥) وبعضُهم التفت إلى الله تائباً عابداً (١٦ ـ ١٨) أو منقطعاً ذاكراً (١٩ ـ ٢٥) ويشيد بهؤلاء جميعاً (٢٦ ـ ٢٩) ويتمنّى لو يكون خادماً لهؤلاء ؛ ويُثني عليهم ويتلوّمُ على تَقصيره (٣٠ ـ ٣٢) ويُنحي باللائمة على الدنيا (٣٣ ـ ٣٤) ويصف نفسه بالغَفْلَة لعدم الانتباه لواعظ الشَّيب (٣٥ ـ ٣٦) ولِسَيْرِهِ سِيرة العَجُوز المتصابي (٣٧ ـ ٤٠) ويرجعُ إلى نفسه (٤١ ـ ٤٣) ويختم بالدُّعاء والرَّجاء (٤٤ ـ ٤٥)] .

[من السريع]

١ إنَّ أُولي العِلْمِ بِما في الفِتَنْ   تَهَيَّبُوها مِن قَدِيْمِ الزَّمَنْ

(١) الفتن : جمع الفتنة : وهي هنا ما يقع فيه الناس من الاختلاف أو الحرب والقتال .

٢	فـــــاسْتَعْصَمُـــوا اللهَ وكانَ التُّقَى	أَوْفى لَهُمْ فيهـــــا مِنَ اوفى الْجُنَنْ
٣	واجتَمَعُـوا في حُسْنِ تَـوفيقِـــهِ	وافْتَرَقُـــوا في كُـــلِّ سَعيٍ حَسَنْ
٤	فعـــالِمٌ مُسْتَمجَـدٌ عـــامِـلٌ	يَسْلُـكُ بـالنّـاسِ سَـواءَ السُّنَنْ
٥	يَنْثُرُ مِنْ فِيــــهِ لَهُمْ جَـوْهراً	من عِلْمِــهِ ليسَ لَـــهُ مِنْ ثَمَنْ
٦	يَقْسِمُـــــهُ طُـــلاَّبِــــهُ بَيْنَهُم	قِسْمَـــةَ تَعـديـلٍ بِقَـدْرِ الفِطَنْ
٧	وبُهْمَـــــةٌ مُخْتَرِطٌ سَيْفَـــــهُ	يغمِـدُهُ في هـــامِ أَهْـلِ الـوَثَنْ
٨	يَلْبَسُ مِنْ إيمـــانِـــه لأمْـــةً	فَضْفــاضَـةً يَغْنَى بِهَـا عَن مِجَنْ
٩	وحــــابِسٌ في بَيْتِـــهِ نَفسَـــهُ	مُعتَـزِلٌ مُستَمسِـكٌ بــالسُّنَنْ
١٠	يَـأخُـذُ مِنْ دُنيَـاهُ قُـوتـاً لَـهُ	مُقْتَنِعـــاً مِثْـلَ عِـــذارِ الرَّسَنْ
١١	قَـــد جَعَـلَ البَيْتَ كَقَبْرٍ لَـــهُ	وبُرْدَه فيـــهِ لَــــهُ كالكَفَنْ
١٢	فهـــوَ خَفيفُ الظَّهر لكنَّــــهُ	أَثْقَـــلُ في مِيزانـــهِ من حَضَنْ

---

(٢) في الأساس : أنا معتصم بفلان ومستعصم به .
فالفعل استعْصم لهذا المعنى يتعدى بالباء .
ـ والْجُنَن : جمع الْجُنة ، وهو ما يقي ويحمي .

(٤) السَّواء : الْمُستوي .

(٥) أي لا يُقَدّر بثمن لارتفاع قِيمته (كلُّ ثمنٍ فهو دونه) .

(٧) البُهْمَة : بضم الباء : الشجاع الذي لا يُهتدى من اين يُؤتى .
ـ واخترط السيف : استلّه من غمده .

(٨) اللأمة : الدرع الحصينة ، والْمجَنّ : التُّرس .

(١٠) اقتنع : اتخذ القناع (أي يأخذ القليل ويحجز نفسه عن الكثير) .

(١٢) في متن اللُّغة أن (خفيف الظهر) هو القليل العيـال ؛ ولكن الشـاعر كنّى هنـا بخفـة الظهر عن قلّة المال والنَّشب والحظّ من الدُّنيا .
ـ وحَضَنٌ : جَبلٌ بنجد ، ضربه مثلاً .

١٣	وهــارِبٌ شُحّــاً عَلى دِينِــهِ	إلى البَرارِي ورؤوسِ القُنَنْ
١٤	يــأنَسُ بـالـوَحْـدَةِ في بِيْـدِهـا	أكْثَرَ مِن تَـأنِيْسِـهِ بـالسَّكَنْ
١٥	لا يَرْهَبُ الأُسْـدَ ومَن لم يَخُنْ	سَيِّـدَهُ في عَهْـدِهِ لم يُخَنْ
١٦	وتــائِبٌ مِنْ ذَنْبِــهِ مُشْفِـقٌ	يَبكي بُكاءَ الـواكِفَـاتِ الهُتُنْ
١٧	تَخــالُــهُ بينَ يــدي رَبِّــهِ	في ظُلَمِ اللَّيْـلِ كَمِثْـلِ الغُصُنْ
١٨	إنْ مَهَّـدَ النَّـاسُ لِـدُنْيَـاهُمُ	شَمَّرَ في تَمهِيْـدِهِ لِلْجَنَنْ
١٩	كأنَّما الأرضُ لــهُ أيكَــةٌ	وهْـوَ بِهَـا قُمْرِيَّـةٌ في فَنَنْ
٢٠	وصَـامِتٌ، في قَلبِـهِ مِقْـوَلٌ	بـالـذِّكْرِ للهِ طَـويـلٌ لَسِنْ
٢١	تراهُ كالأبْلَـهِ في ظَــاهِرٍ	وَهْـوَ مِنَ أذْكى النَّـاسِ فيما يَظُنْ
٢٢	قَـد نَـوَّرَ اللهُ لَـهُ قَلْبَـهُ	بـالـذِّكْرِ في السِّرِّ لـهُ والعَلَنْ
٢٣	فـإنْ يَبِنْ بـالفِكْرِ عَن صَحبِـهِ	فَجِسمُـــهُ بينَهُمُ لم يَبِنْ

(١٣) قُنَن الجبال ، وقُلل الجبال : أعاليها ، جمع قُنَّة .

(١٤) يقال : سكن داره : السَّكَن بالتحريك ، والسَّكْن بالسكون : أهل الدار .

ـ وأورد الشاعر التَّأنيسَ (وهو مصدر أنَّس) في محل الأنس (مصدر أنِس) .

(١٦) الواكفات : جمع الواكفة ، والهُتن : جمع الهتون : وهما صفتان للسحاب الممطر .

(١٨) الْجَنَن : القبر .

(١٩) القُمريّة (والذكر قُمري) نوع من الحمام ؛ ونوع من الأطرغلاّت صغير الحجم لطيف الشكل ويُعرف عند أهل الشام بالكريم . والأيكة : الشجرة الكبيرة .

ـ وإنما شَبَّه الشاعر الرجل التائب العابد بالقُمْري ، لأن القمري كثير التَّغريد ، ويُشَبّه التسبيح في ترداده بتغريده ، ومن هنا سُمّي في الشّام بالكَريم ، قالوا : إنّه يدعُو : يا كريم ! يا كريم !

(٢٠) الْمِقْوَلُ : اللّسان ؛ ولَسِنٌ ، أي فَصِيح .

(٢١) أي : ظَنُّ ذلك الرّجل كاليقين من ذكائه وفطنته .

٢٤	وإنْ لَغَــوا وهـــو جَليسٌ لَهُمْ	لم يَلِـجِ اللَّغـوُ لـــهُ في أُذُنْ
٢٥	في مَلَكُـوتِ اللهِ سُبحـــانَـــهُ	تَجـولُ ألبـابُ لُبـابِ الفِطَنْ
٢٦	فَهُمْ خُصـوصُ اللهِ في أرضِـــهِ	حقّـاً ، بِهِمْ تُـدرَأُ عَنَّـا المِحَنْ
٢٧	سَمَـوا بفَضْـلِ اللهِ نحْـوَ الّتي	مَنْ حَـلَّ في جِيْرَتِهَـا قَـد أمِنْ
٢٨	ونَـزَّهُـوا الأَنْفُسَ عَن مَنْـزِلٍ	نَـازِلُـهُ مُسْتَـوفِـزٌ للظَّعَنْ
٢٩	وَضَمَّرُوا الْخَيْـلَ لِيَـومٍ بِـهِ	يُنكَبُ مَنْ يَركَبُ فَـوقَ الْهُجُنْ
٣٠	فَلَيتَني كنتُ لَهُمْ خـادِمـاً	وليتَني إذْ لم أكُنْ لم أكُنْ!
٣١	وَمَنْ سِـوَاهُمْ فَرِجـالٌ رَجَـوْا	أَنْ يَعْبُرُوا البَحْرَ بِغَيْرِ السُّفُنْ
٣٢	وإنَّما قَصَّرَ بي عَنْهُمُ	حُبِّي لِـدارٍ مُلِئَتْ بـالفِتَنْ
٣٣	لا غـارَتِ الـدُّنيـا ولا أنْجَـدَتْ	فـالعـاقِـلُ الْحُرُّ بهـا مُمْتَحَنْ
٣٤	تَميـلُ لـلأَحْمَـقِ مِنْ أَهلِهـا	وهيَ على عـاقِلِهِمْ تَضْطَغِنْ

(٢٤) وَلَجَ : دخل .

ـ واللّغوُ : سقطُ الكَلام وما لا يُعْتَدّ به مِنه .

(٢٥) الألباب : جمع لُبّ : العقل ، واللُّباب من كل شيءٍ خالصه .

(٢٦) تُدرأ : تُدفع .

(٢٨) استوفزَ : جلس على هيئةٍ كأنّه يُريد القيام .

(٢٩) في الأصل : « وسَمّروا » هكذا بالسين ، وأظنها : « وضَمّروا الخيل » من التهيئة والإعداد .

(٣٠) يقول : ياليتني إذ لم أكن خادماً لهم ، لم أكن (لم أُوجد) !

(٣٣) غار : أتى الغور . وأنجد : أتى النَّجد . والمقصود : لا كانت الدنيا !

(٣٤) انظر بيت المتنبي :

ذو العقـل يشقى في النعيم بعقلـه وأخـو الجهـالـة في الشقـاوة ينعَمُ !

الديوان ـ شرح العكبري ١٢٤/٤

ـ وتضطغن : تحمل ضغناً (حقداً) .

٣٥ يــا عَجَبــاً مِن غَفلَتي بعــدَ أنْ نــاداني الشَّيْبُ ألا فــارْحَلَنْ !

٣٦ وأَدْرِكِ الفــائتَ مِن قَبْـلِ أَنْ يَفْجَـأَكَ المـوتُ فَـلا تُنظَرَنْ

٣٧ أَقْبَـحُ مَنْ تَرمُقُـهُ مُقْلَـةٌ مُبْصِرَةٌ، شَيـخٌ خَليـعُ الرَّسَنْ !

٣٨ تَقْتـادُهُ الـدَّهْرَ دَواعي الْهَـوى إلى الصِّبـا مِثْـلَ اقْتِيـادِ البُـدُنْ

٣٩ يـأمُـلُ آمـالَ فَتًى يـافِـعٍ كأَنَّـهُ لَيْسَ بِشَيْـخٍ يَفَنْ

٤٠ ليسَ جَمالُ الشَّيـخِ إلاّ التُّقى والمحـوُ للسُّـوءِ بِفِعْـلٍ حَسَنْ

٤١ شُغِلْتُ بـالـوَصْفِ ولـو أَنَّني أُشْغَلُ بـالْمَوصوفِ كُنْتُ الفَطِنْ

٤٢ ولَمْ أَبِـعْ رُشْـداً بِغَيٍّ ولَمْ أَرْضَ بِعَقْلي مثْـلَ هـذا الغَبَنْ

٤٣ إنَّـا إلى اللهِ لقَـدْ حـاقَ بي مـا يـورِثُ الخِـزْيَ غَـداً والْحَـزَنْ

٤٤ والْحَمْـدُ للهِ فَفي كَفِّـهِ مَنْـحٌ لِمَنْ شـاءَ وفيهـا المِنَنْ

٤٥ وَهْـوَ الّـذي أَرْجـو فَـإن لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَجـائي فيـهِ طَـوْلاً فَمَنْ ؟

---

(٣٦) أَنْظَرَه : أخَّره .

(٣٧) فلان خليعُ الرَّسن : كنايةٌ عن الاستهتار . وفي الأساس : خلَع فلان رسَنه ، وعِذاره : عَدا على النّاس بِشَرّ .

(٣٨) البُدن جمع البَدَنة : الناقة أو البقرة ، تُنحر بمكة ؛ سُمّيت بذلك لأنّهم كانوا يُسَمِّنونها .

(٣٩) اليَفَن : الشيخُ الكبير البالي .

(٤٢) كذا في الأصل : « لَمْ أَرْضَ بعقلي » . وأحرى أن يكون : أَرْضى لِعَقلي .

(٤٣) حاقَ به العَذاب (يَحيقُ) : أحاط به ونزل .

(٤٤) المِنَنُ : جمع الْمِنَّة (بالكسر والضمّ) : الإحسان والإنعام .

(٤٥) الطَّوْل : الفضل والقُدرة ، ومدّ اليَد بالعطاء .

[٢٧]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[ظاهر أن الشاعر اكتفى هنا بهذه الأبيات ، فجاءت الطّاقة الشعرية في مقطوعة قصيرة ، أثارها مشهد جنازة صاحبٍ من أصحابه ، أو خبر وفاة أحدهم ، فتخيّله في جنازته .

ـ وفيها حثٌّ على الاعتبار بالموت ؛ وسخريةٌ من الإنسان الّذي أسرع إليه النّسيان أو الّذي تبَلّد إحساسه !] .

[من الطويل]

١ تَمُرُّ لِداتي واحِداً بَعْدَ واحِدِ ... وأَعْلَمُ أنّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خالِدِ

٢ وأحْمِلُ مَوْتاهُمْ وأَشْهَدُ دَفْنَهُمْ ... كأنّي بَعيدٌ مِنْهُمُ غَيْرُ شاهِدِ

٣ فها أنا في عِلْمي بِهِم وجَهالَتي ... كَمُسْتَيْقِظٍ يَرنو بِمُقْلَةِ راقِدِ !

---

(١) اللِّداتُ : جَمْع اللِّدَة ؛ واللِّدَةُ والتِّربُ : الذي يُولد معك في وقت واحد .

(٢) يقول : يمارسُ هذه الأُمور ـ وفيها العظة ـ فلا يَتَّعِظْ !

(٣) يرنو ـ مضارع رنا : أي أدام نظره إليه بسكون الطّرف .

[٢٨]

وقال أيضاً رضي الله عنه ـ في المدح :

[القصيدة في مدح (ابن سلمان) والثناء عليه ، والأنس به واللجوء إليه في الضرورات والملمّات (١ ـ ٣) .

وابن سلمان تاجٌ للملك وعون للحاكم ، شديد العزم قوي من العلماء الكبار يستحق أن يُهدى إليه الشعر وتدبّج فيه القصائد (٤) .

والشاعر يركن إليه في دفع الخطوب وتحقيق الأماني ودفع الخصوم (٥ ـ ٨) والممدوح كفيلٌ بحلّ كل مشكلة ومعضلة ! (٩)] .

[من البسيط]

١ ما تُوِّجَ الْمُلْكُ إلاّ بابْنِ سَلمانِ ... ولا يَشُدُّ سِواهُ أَزْرَ سُلطانِ

٢ ما الرِّيحُ في سَيْرِها تَحكي عَزائِمَهُ ... إلاّ الجيادُ إذا جَدَّتْ بأَقْران

٣ كانَت جَزيرَتُنا مِن قبلُ أندَلُساً ... فَمُذْ نشأْتَ بِها فَهْيَ العِراقانِ

---

(١) الأَزْرُ : القُوَّة ، والظَّهر . و : شدَّ به أزره أي قوّى ظهره ومنه آزره أي أعانه وقوّاه . وفي سورة طه [٢٠/٣١] : ﴿ واجْعَلْ لي وَزيراً مِن أَهْلي هارونَ أَخي اُشْدُدْ بِهِ أَزْري ﴾ .

(٢) العزائم ـ جمع العَزيمة ـ ومعنى البيت ـ كما تبادر لي ـ : إنّ عزائمه سريعةُ النَّفاذ ، لا يُشبهها في السُّرعة إلا الريح ، والجياد إذا أسرعت الْجَرْي في أرضٍ رمليّة : في أسافلها السَّهلية .

(٣) العِراقان : تَثنية العراق .

ـ يقول : كانت الأندلس قبله قُطراً إسلامياً لا يُنافِسُ على زعامة أقطار الدولة العربية الإسلامية ، ولكنّ الأندلس بهذا الممدوح نافست عاصمةَ الدّولة في بغداد في العلم والأدب والثقافة وفنون الحضارة .

٤	نُهْدي إليكَ القَوافي وهيَ طَيِّبَةٌ	كالرَّاحِ تُهْدى زِفافاً بَيْنَ خِلاّنِ
٥	ما لي تُلاحِظُني عينُ الْخُطوبِ وقد	أَسْنَدتُ منكَ إلى رُكْنٍ كَثَهْلانِ
٦	وكَيفَ يَشْكو الصَّدى مِثْلي على مِقَتي	ومَاؤُكَ الغَمْرُ يَرْوي كُلَّ ظَمآنِ
٧	أَمْ كيفَ يطمَحُ شَيْطانٌ إلى أُفقي	ومِنْ سَمائِكَ يُرْمَى كُلُّ شَيطانِ
٨	بَلْ كَيفَ يَغمِزُني إنسانُ أَعْيُنِهِمْ	وأَنتَ لي وَزَرٌ مِنْ كُلِّ إنْسانِ ؟
٩	نَبِّهْ أَبا حَسَنٍ لِلْمُعضِلاتِ ونَمْ	نَوْمَ العَروسِ عَلى رَوْحٍ ورَيْحانِ

---

(٤) يقال : زفّ العروس زفّاً وزفافاً : أهداها إلى زوجها .

(٥) قوله : مالي تُلاحِظني ، كلامٌ مقلوب مقصوده : ماللخطوب تلاحظني ، وهو في كلامهم كثير .

ـ وثهلان : جبلٌ ، ضربه مثلاً .

(٦) الصَّدَى : العطَش ، والمِقَة : الْحُبّ ، والماءُ الغَمْرُ : الكَثير .

(٧) استفاد من الآية الكريمة في سورة الملك [٦٨/٥] : ﴿ ولَقَدْ زَيَّنا السَّماءَ الدُّنيا بمَصابيحَ وجَعَلْناها رُجوماً للشَّياطين وأَعْتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعيرْ ﴾ .

(٨) يقال : غمزه بالعين والحاجب : أشار . والعبارة هنا كناية عن الاستخفاف بالشاعر أو الائتمار به .

ـ والوزر : الملجأ والمعين .

(٩) في الأغاني ١٨٧/٣ :

إذا دهمتك عظام الأُمور	فنبه لها عُمَراً ثم نَمْ
فتًى لا يَنامُ على دِمْنَةٍ	ولا يشربُ الماء إلا بدم !

والبيتان : لبشّار بن برد .

ـ والرَّوح : السُّرور والفَرح . والرَّيحان : النَّبات المعروف ، والرحمة والرزق .

ـ والْمُعْضِلات جمع الْمُعْضِلَة .

● ويرجح عندي أن ابن سلمان هذا هو أبو الحسن علي بن توبة الذي مدحه الشاعر (ينظر مثلاً القصيدة [٢٢] وحواشيها .

[٢٩]

وقــال ـ رضي الله عنــه ـ وقــد رفـع أهـل إلبيرة على قــاضيهم ابن أبي زمنين(☆) :

[يهاجم الشاعر أولئك الذين رفعوا شكوى في حق القاضي محمد بن عبد الله بن أبي زَمنين ويشمَتُ بهم فقد خاب سعيهم ولم يُقبل منهم . ويُثني على القاضي ، ويعيب على الشّاكين أنّهم لم يقدروا القاضي حقّ قدره .

وفي البيت الأخير تعبيرٌ فصيحٌ عن عبارات عامّية وعادات كانت معروفة في مثل هذه الأحوال (من التشفّي والشّماتة)] .

(☆) محمد بن أبي زمنين :

بيتُ أبي زمنين بيتٌ مشهور بالعلم والفضل ، قديم في الشهرة منهم في مدة الدولة المروانية بالأندلس : محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن إبراهيم المرّي المعروف بابن أبي زمنين . ولد سنة ٣٢٤ هـ وتوفي بإلبيرة سنة ٣٩٩ هـ . وقد روى عنه أبو إسحاق الإلبيري .

قال لسان الدين فيه : كان من كبار المحدّثين والعلماء الرّاسخين وأجلّ وقته في العِلم والرّواية والحِفظ للرّأي والتّمييز للحديث والمعرفة باختلاف العلماء ، متفنناً في العلم ، مضطلعاً بالأدب ، قارضاً للشعر ، متصرّفاً في حفظ المعاني والأخبار مع النُّسك والزُّهد والأخذ بسنن الصالحين والتخلّق بأخلاقهم ... إلخ .

وذكر عدداً من مؤلّفاته في التفسير ، والفقه ، والحديث والزهد وغير ذلك من الفنون .

ومن هذا البيت الشهير ، محمد بن عبد الله بن أبي زَمنين الذي ولي الأحكام وكان فقيهاً نبيهاً . وتوفّي في عشر السّتين وأربع مئة (فهو من جيل أبي إسحاق الإلبيري) . =

[من الطويل]

١	رَفعتمْ على قـــــاضيكمُ فخَفَضْتمُ	وحـاوَلْتمُ خِـزْيـاً لَـهُ فَخَـزيتمُ
٢	وطالَ ـ لَعَمري ـ ماسَعِدتُمْ بسَعـدِهِ	ولَـوْ أنَّـــهُ يَشقى إذَنْ لَشقيتُمُ
٣	ومــا كانَ إلاّ سِترَكُمْ لَـو عَقلْتُمُ	ولكِنَّكُمْ عَن رُشـدِكُمْ قَـد عَميتُمُ
٤	فَها هُـوَ ذا يَقضي على الرَّغْمِ مِنكُمُ	فَموتوا بغَيْـظٍ واصنَعوا كَيفَ شِيتُمُ
٥	وحُكُّوا عَلى ظَهرِ الصَّعيدِ سِتـاهَكُمْ	فَلَنْ تَعْشُروه في العُلَى لـو خَريتُمُ

= ـ ولم يذكر جامع الديوان اسم ابن أبي زمنين ، ولا كنيته ، ولا أشار إلى سنةٍ أو تاريخ .
ويرجح عندي أن يكون المقصود بالشعر هو ابن أبي زمنين المتوفى في عشر الستين وأربع مئة .

قلتُ : وتَرْجَم ابن بشكوال في الصلة لأبي عبد الله محمد بن أبي زمنين شيخ أبي إسحاق الإلبيري ، وقال في أثناء ترجمته إنه كان من البكّائين الورعين الخاشعين وأنه سكن قرطبة دهراً ، ثم انتقل إلى إلبيرة .

ونَقل ابن بشكوال عن الحميدي من شعره (والنص في جذوة المقتبس) .

الموتُ في كل حين ينشُر الكفنا	ونحن في غفلةٍ عمّا يُراد بنا
لاتطمئنَّ إلى الدنيا وزُخْرُفِها	وإن توشّحت من أثوابها الْحَسَنا
أينَ الأحبّةَ والجيرانُ مافعلوا	أين الذين هُمُ كانوا لَنا سَكنا ؟
سَقاهم الدهرُ كأساً غير صافيةٍ	فَصيّرتْهُم لأطباق الثّرى رهنا !

ـ وقال الحميدي : « له تواليف متداولة في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين على طريقة ابن أبي الدنيا ، وأشعار كثيرة في نحو ذلك » .

(انظر جذوة المقتبس : ٥٣ ، والصلة ٤٨٢/٢ ، والتكملة لابن الأبّار ١٣٦/١ ، والإحاطة ١٧٢/٣)

(١) أي : رفعتم شكوى على القاضي إلى الأمير أو الحاكم ، فخفضتم من أقدار أنفسكم ، وحاولتم أن تخزوه فأصابكم الخزي وارتدت سهامكم إليكم !.

(٤) يقضي : أي يمارس مهمة القضاء (يعمل قاضياً ، لم تستطيعوا العمل على عزله) .

(٥) فلن تَعْشُروه : يريد لن تبلغوا عُشْرَ مابلغ في مَدارج العُلى .

[٣٠]

وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ :

[القطعة في العتاب الذي يرقى إلى الهجاء ؛ وفي البيتين تعييرٌ بخلف الوعد ؛ ويمكن توجيهه على معنى الضعف وعدم القُدرة على تنفيذ الوعيد ، على منهج جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشرْ بطول سلامة يا مربعُ !]

[من الطويل]

١ أَيــا قَـوْسَ خَرَّاطٍ يُشيرُ ولا يَرْمي ويا سَيفَ رِعْديدٍ يَرُضُّ ولا يُدْمي

٢ تَعَلَّمْتَ خُلْفَ الوَعْـدِ مِن بَرقِ خُلَّبٍ فَبَرْقُـكَ لا يُثري ولكنَّــهُ يُعمي

---

(١) لم أقف على معنى « قوس خرّاط » وأظن ـ حدْساً ـ أنه قوس النَّدّاف الذي يندفُ القطن والصوف وسواهما . شبه المندفة بالقوس ، وهو « يُشير ولا يرمي » .
والرِّعديد : الجبان يرتعد ويضطرب عند القتال جُبناً .

(٢) قوله (يُعمي) مستفاد من معنى الآية الكريمة [البقرة ٢/٢٠] : ﴿ يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصارَهُمْ ﴾ .
ـ يقول : من عادة البرقِ الواعد أن يكون معه مطر ، فيكون مع المطر خير ، ومن الخير النَّماء والثراء ؛ ولكن برقك خُلّب (لا مطرَ معه ولا ثروة تتبعه) ولكنه برق يلمعُ فيكاد يُعمي عيون الذين يَشيمونَ (يترقَّبون) أين يُمطر سَحابه .

[٣١]

وكان أبو بكر بن الحاجّ قد هجا أبا الحسن بن توبة وجماعة من الفقهاء معه ، فضربه ضرباً وجيعاً ، وطِيْفَ به على الأسواق ، فقال ابن مسعود - رضي الله عنه - في ذلك[☆] :

[في القصيدة هجاء مرّ وتشفٍّ ظاهر ، فقد تَبَنّى وجهة نظر الحكم القضائي الذي أنفذه القاضي ابن توبة في الشاعر أبي بكر بن الحاج بعد تطاوله على القاضي خاصة وعلى جماعة من الفقهاء أيضاً ، وقد وصف ضربه بالسّوط وصوّر أثره في بدنه ونفسه (١ - ٥) وعيَّره بذلك وبيّن له أن تلك العقوبة هي كفاء هجائه (٦ - ٨) وحذّره من مغبة استرساله في طول لسانه (٩ - ١١) وسرد بعض فضائل القضاة والفقهاء عامة (١٢ - ١٣) وابن توبة خاصة (١٤) وأيّد قضاءه (١٥ - ١٧)] .

(☆) أبو بكر بن الحاج

ترجم له في الإحاطة (٥١٧/٣) وقال فيه

« كان شاعراً مُجيداً ، هجا القاضي أبا الحسن بن توبة قاضي غرناطة ومن قصده من الفقهاء ، فضربه القاضي ضرباً وجيعاً ، وطيف به على الأسواق بغرناطة ، فقال فيه الكاتب أبو إسحاق الإلبيري الزاهد - وكان يومئذٍ كاتباً للقاضي المذكور ، الأبيات الشهيرة :

السوط أبلغ من قال ومن قيل ومن نباح سفيه بالأباطيل

وصورة اسمه كاملاً كما رسمت في المطبوع من الإحاطة هي أنه : عبد الرحمن بن الحاج بن القمي (؟) الإلبيري .

- والقاضي أبو الحسن بن توبة ، سبقت ترجمته في حواشي القصيدة [٢٢] وكان الإلبيري (في مرحلة من حياته) كاتباً عند ابن توبة ، وفي الديوان قصيدة في مدحه وأكثر من إشارة ثناء إليه أو دفاع عنه .

[من البسيط

١	السَّوطُ أَبلَغُ مِن قـالٍ وَمِن قِيْـلِ	ومِنْ نُبـاحِ سَفِيـهٍ بـالأبـاطِيـلِ
٢	مُرُّ الْمَـذاقِ كَحَرِّ النَّـارِ أَبْرَدُهُ	يُعَقِّـلُ الْمُتَعـاطِي أيَّ تَعقِيـلِ
٣	رأى مِنَ الطِّبِّ مـا بُقراطُ لم يَرَهُ	في بُرءِ كُلِّ سَخِيفِ العَقْلِ مَخْذولِ
٤	ضئيلُ جِسْمٍ تَخافُ الْخَيلُ سَطْوَتَـهُ	أَعْدَى وأَطْغَى مِنَ التِّمساحِ في النِّيلِ
٥	يُرَقِّصُ الْمَرءَ تَرقيصـاً بِـلا طَرَبٍ	لـو كانَ أثقـلَ أو أجْسَى مِنَ الفِيـلِ
٦	عِنـدَ السَّخِيفِ بِـهِ خُبْرٌ وتَجْرِبَـةٌ	فقَـد رمَى تَحتَـهُ مـا عُـدَّ بـالفُـولِ
٧	وقـد حَسَـا مِنـهُ أمْرَاقـاً مُفَلْفَلَـةً	جشَّتْـهُ شرَّ الْجُشَـا مِنْ شَرِّ مـأْكُولِ

(١) ظاهر أنّ القاضي أمر بتعزير الشّاعر الهَجّاء ابن الحاج والتّشهير بـه . والسَّفيـه : الجاهل ، والضَّعيف : الأحمق الذي يُسافِهُ النَّاس ويُشاتِمُهم .

(٢) يعقل المتعاطي : أي يرد إلى متعاطي الهجاء ومذيعه بين النـاس إلى عقلـه (يُحسّن سلوكـه بتلك العقوبة) .

(٣) بُقراط ، ويقال فيه إِبُقْرَاط ، طبيب يوناني يُعرف بـأبي الطِّب . ولـد سنـة ٤٦٠ ق.م وتوفي سنة ٣٧٠ ق.م

ويُضرب به المثل ـ عند العرب ـ في المعرفة بالطب .

(٤) هذا البيت في صفة السَّوط

ـ والتمساح حيوانٌ معروف ، وهو أكبر الزّواحف . وضُرب مثلاً بالتمساح لشراسته وسرعتـه . وتمساح النيل نَوعٌ من جنس التمساحات Crocodile وهو يألف المنطقة الممتدة من إفريقيـة الجنوبية إلى نهر النيل .

(٥) جَسا يَجْسُو جسوّاً : صَلُب .

أي هو سوط يرقّص من يناله منه الضرب وإن كان صلباً أو ثقيلاً كالفيل !

(٦) السَّخيف : هو المهجو أبو بكر بن الحاج .

(٧) الْجُشاء : تنفّس المعدة عن شِبَعٍ أو بَشَم . وجشّأَهُ : حمله على التجشّؤ .

٨	وقَــد هَجَــاهُ بِهَجْـوٍ مُـؤلِمٍ وَجـعٍ	لا يُشبِــهُ الشِّعْرَ في نَظْمٍ وتَفْصيــلِ
٩	فَقُـلْ لَـهُ إنْ جَرَى هَجْـوٌ بِخـاطرِهِ	أُذكُرْ قِيـامَـكَ مَحْلـولَ السَّراويـلِ
١٠	واذْكُرْ طَوافَكَ في الأسواقِ مُفْتَضِحـاً	مُجَرَّداً خــاشِعــاً في ذُلِّ مَعْـزُولِ !
١١	واذْكُرْ عقـوبـةَ مـا زَوَّرتَـهُ سَفهـاً	في السَّـادَةِ القـادَةِ الشُّمِّ البَهـاليـلِ
١٢	عصــابَـةٌ عَظَّمَ الرَّحْمنُ حُرمَتَهـا	وخصَّهـا مِنْـهُ إكْرامـاً بِتَبْجيـلِ
١٣	هُمُ لُبَــابُ الــوَرَى حقّــاً وغَيْرُهُم	عنـدَ الْحَقيقَـةِ أَبْقـالُ الغَرابيـلِ
١٤	إنَّ ابْنَ تَــوْبَــةَ فيهِمْ رافِـعٌ عَلَمـاً	مِنَ القضــاءِ ومُمْتــازٌ بــإكليـلِ

---

(٩) حُلّت سراويلُه ليباشِرَ السُّوطُ جَسَدَه (ليتمكّن الجلاّد من الْجَلْد) .

(١٠) يضرب المثل في الذّل بذُلّ العَزْل ؛ قال الثعالبي في المضاف والمنسوب ٦٧٥ كان بعض الولاة يقول : لا يقومُ عِزّ الولايـة بِـذُلّ العَزْل ! أي تمتلئ النفس من ذلّ العزل بأكثر مما تمتلئ من فرح التولّي (فالمعادلة غير مجبورة !) .
وقال ابن المعتز :

وذُلّ العَـزْلِ يَضْحَــكُ كلّ يــوم | وَيَضْرِب في قَفـا الـوَالي الْمُـدِلِّ !

(١١) الشمّ جمع أشمّ ، والشَّمَمُ : ارتفاعُ قَصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها ، ويُكَنى بذلك عن ارتفاعِ المكانة والإباء .
- والبَهاليل : جمع البُهلول : السيِّد الجامع لكل خير ، والْحَيِيَ : الكريم .

(١٢) العصابة في اللغة : الْجَماعة . وقصد هنا : جماعة القضاة والفقهاء .

(١٣) أوردها في المطبوع (أبعال) وأشار في الحاشية إلى قراءة أخرى هي (أثفال) وقرأتُها هكذا (أبقال) ؟
ويريد بأبقال الغرابيل ، ما يخرَج عن الحبّ من سواقط أُخرى كالزِّؤان والشّيلم والشّوفان وغيرها .

(١٤) الإكليل : التاج .

١٥ قَضَى بِتَنْكِيـــلِ مَنْ لم يَرْعَ حَقَّهُمُ وحَصَّنَ الْحُكْمَ في هــذا بِتَسْجِيــلِ
١٦ الظَّهْرُ قِرطـاسَـةُ والسَّـوطُ يَطْلُبـهُ بِئْسَ الكِتـابُ بِعَقْـدٍ غَيرِ مَحْلُولِ !

(١٥) نكَل به : جعله نَكالاً وعبرة لغيره ؛ وعاقبه عقاباً يحذَرُ غيرُه منه إذا رآه .

(١٦) أي يطلبه مرةً بعدَ مرّةٍ للضَّرب . وجعل الشـاعر الضرب بـالسّوط على الظهر كالكتـابـة على القِرطاس (الورق) : فكلاهما تسجيلٌ لتلك العقوبة على وَجْهين اثنين !

[٣٢]

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ:

سافرتُ مع القاضي أبي الحسن بن تَوبة في رسالةٍ إلى الوزير أحمد بن عباس فوجدناه مشتغلاً ، فكتبت إليه هذه الأبيات(☆) :

[القطعة أبيات مرتجلة في مناسبة عارضة . وفيها تقريظ للوزير يدخل في باب المُجَاملة . والقطعة أشبه ماتكون بالبطاقة القصيرة العارضة] .

(☆) ـ القاضي الفقيه أبو الحسن بن توبة ؛ سبقت ترجمته في القطعة [٢٢] .

ـ والوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عباس ، كان كاتباً في دولة زهير الصقلبي صاحب المرية وقد وصفه ابن حيّان مؤرّخ الأندلس بقوله « كان حسن الكتابة ، مليح الخط جيّد الخطابة ، غزير الأدب ، قوي المعرفة ، شارعاً في الفقه مشاركاً في العلوم ، مقتبساً للشعر من غير طبع فيه ، حاضر الجواب ذكي الخاطر » وقال ابن بسام إن أبا جعفر قد بذّ أهل زمانه في أربعة أشياء : المال ، والعُجب ، والبخل ، والكتابة . وقد أنحى الأمير عبد الله بن بلقين (آخر أمراء بني زيري ـ حكام غرناطة ـ في مدة دول الطوائف) على أحمد بن عباس على هذا بلوم شديد وقال فيه « وكان له ـ يعني زهير العامري ـ كاتبٌ يعرف بولد عباس من أشد الناس حماقة واستخفافاً ، مُثيراً للشرّ مؤرّشاً بين المُلوك (أي مُثيراً للفتن بينهم) ، وكان الغالبَ على أمرِ زهير » ...

وقد أسره باديس بعد هزيمة جيش زُهير ومقتله ؛ وبعث ابن جهور صاحب قرطبة إلى باديس في استبقاء ابن عباس والعفو عنه ؛ فلم يسمع منه وقتله سنة ٤٢٩ .

(ترجمته في الذخيرة لابن بسام المجلد الثاني ـ القسم الأوّل : ١٥١ والتبيان للأمير عبد الله بن بلقين ٣٤ والمغرب لابن سعيد : ٢٠٥/٢) .

[من السّريع]

١ أَيـــا وَزيراً لَمْ يَـزَلْ آخِـــذاً عنــدَ الْمُلِمَّــاتِ بِـأَيْـدِينـا
٢ وسيِّـــداً نَحكُمُ في مـــالِـــهِ وجــاهِــهِ النَّــامِي بما شِينـــا
٣ أراكَ مَشغـــولاً بِكَسْبِ العُـــلاَ وحــارِســاً دُنْيَــاكَ والــدِّينـا
٤ فـاجْعَـلْ مِنَ اللَّيـلِ لنـا سـاعَـةً يَحْكُم فِيهـا مـــالَــهُ جِيْنـــا
٥ ولا يكنْ يَحضُرنـــا ثـــالـثٌ فَرُبَّما الثَّـــالِثُ يــؤذِينـــا!

قال : فاجتمعنا معه وقَضينا الرّسالة وانصرَفنا

انتهى المجمـوع من شِعر الفقيـه الـزاهـد أبي إسحـاق التُّجيبي الإلبيري ،
رضي الله عنه ، ونفعه ، وتقبَّل منه

وكتب عبـد الله الفقير إليـه سبحـانـه حَكم بن يـوسف بن حكم البَلنْسِيً
- وفقـه الله - بثغر مَنُرْقـة - كـلأه الله - في منتصف ذي الحجـة سنـة
ست وسبعين وست مئة ، والحمد لله كما هو أهله

المستدرك

على ديوان الإلبيريّ

[٣٣]

قال الإلبيري

[هذا المقطع هو الجزء الباقي من قصيدة مفقودة ؛ استشهد به الشَّريشي (الأندلسي) شارح مقامات الحريري في أثناء شرح المقامة السمرقندية ؛ في استطراده إلى ذكر ذهاب الأمم والاعتبار بصنائع الأيام .

ذكرَ الشاعر كثيراً من مَتاع الدُّنيا من الذهب والمال والأسلحة المختلفة ومن الخيل العِتاق (١ ـ ٣) وذكر تقلّب مَنْ خَلا في تلك النعم مع القُوّة والبأس ولكن حكم القضاء الحتم جاء عليهم . وكل شيءٍ هالك إلا وجهه (٤ ـ ٥)] .

[من الكامل]

١ أَيْنَ الْمُلُوكُ وأَيْنَ مَا جَمَعُوا ومَا ذَخَرُوهُ مِنْ ذَهَبِ الْمَتاعِ الذَّاهِبِ

٢ ومِنَ السَّوابِغِ والصَّوارِمِ والقَنَا ومِنَ الصَّواهِلِ بُدّنٍ وشَوازِبِ

٣ كانت سوابِقُها تحمّل مِنْهُمُ أَقْمارَ أَنْدِيَةٍ وأُسْدَ كَتائِبِ

(١) جانس الشاعر بين الذَّهب (المعدن الثَّمين) والذّاهب : (اسم الفاعل من ذَهَبَ) .

(٢) السّوابغ : جمع سابغة : الدروع ، والصوارم : السُّيوف . والقنا : جمع القناة : الرُّمح ، والصَّواهل : جمع صاهل : الفرس . والبدن : جمع بادن : الْجَسِيم . والشوازب : جمع الشازب : الضامر .

(٣) أي الخيل السَّوابق ، فهم يتخيرون الخيولَ الكريمة .

٤ كانُـوا لُيُـوثَ خَفيَّـةَ لكِنَّهُمْ سَكَنُوا غِيـاضَ أسِنَّـةٍ وقـواضِبِ

٥ قَصَفَتْهُم ريـحُ الرَّدى ورَمَتْهُمُ كَفُّ الْمَنُـونِ بِكُـلِّ سَهْمٍ صـائِبِ

---

(٤) غِياض : جمع غَيْضة : مجتمع الشجر في مَغيض ماء ؛ والأجمة .
وأوردها الشّاعر هنا على الْمَجاز ؛ يقول : كانوا في حماية الأسِنّة (الرِّماح) والقَواضب (السيوف ؛ جمع قاضب) . جعل ذلك السلاح كالغَيْضَة ، ثم إنّها تحمي مَنْ فيها .
ـ وخَفِيَّة : اسم مكان ؛ يقال لُيوث خَفية ؛ نسبة إلى ذلك المكان ، كما يُقال : أُسْدُ شَرَى .
وفي شعر الأشهب بن رُمَيلة (أمالي القالي : ٨/١) :
أُسـودُ شَرًى لاقت أُسـودَ خَفِيّـةٍ تَسـاقَوا على حَرْدٍ دمـاءَ الأَسـاوِدِ

[٣٤]

وقال الإلبيري :

[الأبيات من قصيدة مفقودة ، فيها لوم لأهل زمانه ممَن أخطأه الموت وكانَ على غير التُّقى وغيرِ الْخُطَة الْمَرْضِيَّة . وفيها رثاءٌ عامّ لأصحابه وأصدقائه مِمَّن اتَّصف بالتَّقْوى وصِدق الْمَودَة ؛ وفيها رثاءٌ لنفسه بعد أن ماتَ عنه أكثر أترابه ولِداته] .

[من المتقارب]

١	فإنَّ الرَّدَى غالَ أَهْلَ التُّقى	فلم يَبْقَ إلاّ الغَشومُ العَنيدْ
٢	وأَوْدَى بِكُلِّ خليلٍ وَدودٍ	فأينَ ـ ولا أينَ ! ـ خِلٌّ وَدودْ ؟
٣	وكَمْ مِنْ أَخي ثِقَةٍ قد لَحَدْتُ	فَلِلّهِ ما غَيَّبَتْهُ اللُّحودْ
٤	وأَثْكَلَني الأُنْسَ ثُكْلُ اللِّداتِ	فَصِرْتُ كأنّي غَريبٌ وَحيدْ
٥	وكَمْ مِن شَقِيٍّ يُوارَى التُّرابَ	وكَمْ مِنْ سَعيدٍ يُوارَى الصَّعيدْ !

(١) الغَشوم : صيغة مبالغة اسم الفاعل من غَشم الوالي الرعيّةَ : ضَبطهم بعسفه وأخذ كل ما قدر عليه وأراده .
والعنيد من عَنَد : عتا وطغا وتجاوز قدره ؛ وعَنَد أيضاً : خالَف الحقَّ وردّه عارفاً به .

(٢) وَدود : صيغةُ مبالغة اسم الفاعل من وَدّ : أحبَّ .

(٣) لَحَد الميّتَ : دفنه . واللُّحود : جمع لَحْد .

(٤) اللِّداتُ : جمع اللِّدَة ـ وهو التِّرْب (الموازي في العُمر) .

(٥) الصَّعيد : التُّراب والقبر .

[٣٥]

وقال الإلبيري :

[ظاهرٌ أنّ الأبيات قطعة تامّة أنشدها الشاعر على هذه الحال .
وفيها استسلامُ العبْد المُؤمن لله تَعالى وتسليمٌ لحكمه وقضائه ، ودعاءٌ بالعَفو والمَغفرة] .

[من البسيط]

لا قُوَّةٌ لِيَ يا رَبِّي فأَنْتَصِرُ	ولا بَراءَةَ مِنْ ذَنبي فأَعتَذِرُ
فَإن تُعاقِبْ فَأهلٌ للعِقابِ وَإنْ	تَغفِرْ فَعَفوُكَ مَأْمولٌ ومنتَظَرُ
إنَّ العَظيمَ إذا لم يَعْفُ مُقْتَدِراً	عَنِ العَظيمِ فَمَنْ يَعْفو ويقتَدِرُ؟

---

(١) كأن المعنى أنه : لا قوة له غالبة فيمنع نفسه من بعض مَيلها وهَواها فينتصر عَليها ، فهو لهذا صاحبُ ذَنب ؛ فهو ـ أيضاً ـ غير بريء (غيرُ خالٍ) من الذُّنوب ؛ ولو كان خالياً من الذنوب لكان عُذره عند الحساب واضحاً !

(٢) مَأمول : مَرْجُوّ .
يقول : إن نالته عقوبةٌ من الله تعالى فبذنوبه وبما يستأهل به العقاب ...

(٣) عن العظيم : أي عن الذّنب العظيم .

[٣٦]

وقال الإلبيري :

[قَـدَّم المقّري - في إحـدى نسـخ نفـح الطيب لهـذه الأبيـات (٣١٨/٤) - بهذه العبـارة : « قـال الإلبيري في تِيـه الغنيّ بغنـاه ، وهـو كَلا شيء في عُقباه » .

ويظهر لي أن الأبيات هي قطعةٌ وافية ، لا جزءٌ من قصيدة وهي في الاعتبار بالغنيّ الذي يَغُرّه مالُه ويَظُنّه خالداً لـه ثم تَقْلِبُ لـه الأيّـام وجهها ؛ وفيها تحذير من الرُّكون إلى الغنى ، وتبيانٌ ما يكفي بني آدم في دنياهم وهو الكفاف . وأية حاجـة للمرء بما يَفوق كَفـافـه ؛ وكَفـافُـه هو كِفايَتُه أيضاً ؟!] .

[من المنسرح]

١ وَذي غِنى أوهَمَتْـــهُ هِمَّتُـــهُ ... أَنَّ الغِنَى عنـــهُ غيرُ مُنفَصِـــلِ

٢ فَجَرَّ أذيـــالَ عُجْبِـــهِ بَطَراً ... واختـــالَ للكِبْرِيـــاءِ في حُلَـلِ

٣ بَـزَّتـهُ أَيْـدي الْخُطـوبِ بِـزَّتَـهُ ... فـاعتـاضَ بعدَ الْجَـديـدِ بـالسَّمَـلِ

(١) غير منفصل عنه : أي غيرُ خارج عنه ؛ وغير مُفارقٍ إيّاه .

(٢) البَطَرُ : مصدر : بَطِر أي : طَغى عند النُّعمى وطول الغنى .

(٣) بزَّه الشيء : انتزعه وأخذه بجفاء وقَهر ، والبَزُّ : الثياب .

- والسَّمَل : اسمٌ من سَمَل ، وسَمِلَ الثوبُ : أخْلَق وبلي فهو خَلَقٌ بالٍ .

٤ فـلا تَثِـقْ بـالغِنَى فـآفَتُـهُ الـ ـفَقرُ، وصَرْفُ الـزَّمـانِ ذو دُوَلِ

٥ كفَى بِنَيـلِ الكَفـافِ منـهُ غِنًى عنـهُ فكُنْ فيـهِ غَيرَ مُحتَفِـلِ!

---

(٤) من القول الشائع : آفَة الغِنى الفَقْر .
ـ وصَرْفُ الزَمان : واحد صروفه وهي حوادثه ونوائبه .
ـ (ذو) دُوَل : جمع دولة ، والدّولة : انقلابُ الزمان من حال بُؤس وضُرّ إلى حالةِ غِبطة وسُرور ؛ (والعكس) .

(٥) الكفاف من الرّزق : ماأغنى عن النّاس : ليس فيه فضلٌ (زيادة) ولا نُقصان .
ـ وقولُ الشّاعر : كفى بنيل الكَفاف منه : أي من المال .

[٣٧]

وقال - عفا الله عنه - مبتهلاً إلى مولاه

[هذه الأبيات وحدة تـامّـة : وفي النّص ابتهـال ورجـاء واعتراف بالتقصير ، وتلوّم ذاتي ، ورغبة ملحة في طلب العفو والمغفرة] .

[من الوافر]

١ أَتَيْتُـكَ راجِيـاً يـا ذا الْجَـلالِ ... فَفَرِّجْ مـا تَرَى مِن سـوءِ حـالي

٢ عَصَيْتُـكَ سَيِّـدي - وَيلي - بِجَهلي ... وعيبُ الـذَّنبِ لم يخطُرْ ببـالي

٣ إلى مَنْ يَشْتَكي الْمَملـوكُ إلاّ ... إلى مَـوْلاهُ يـا مَـوْلى الْمَـوالي

٤ لَعَمْري ليتَ أُمِّي لم تَلِـدْني ... ولم أُغضِبْـكَ في ظُلَمِ اللَّيـالي

٥ فهـا أَنـا عَبْـدُكَ العـاصي، فَقيرٌ ... إلى رُحمـاكَ فـاقبَـلْ لي سُـؤالي

٦ فَـإن عـاقَبْتَ يـا رَبِّي تُعـاقِبْ ... مُحِقّـاً بـالعَـذابِ وبـالنَّكالِ

٧ وإنْ تَعْفُ فَعَفْـوُكَ قَـدْ أَراني ... لأَفْعـالي وَأَوزاري الثِّقـالِ!

(٦) النَّكال : العقاب أو النازلة ؛ وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَجَعَلْنـاهـا نكالاً لِما بَيْنَ يَـدَيْهـا ومـا خَلْفَها ﴾ [البقرة ٢/٦٦] . و : ﴿ جزاءً بما كَسَبا نكالاً منَ الله ﴾ [المائدة ٥/٣٨] .

[٣٨]

وقال الأُستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله تعالى :

[تدور الأبيات حول حقيقة الموت وعدم الخلود في الدُّنيا وأنَّ الإنسان : يتناقص عمره كلَّ يوم .

فهي : تنبيهٌ وتحذير .

وفي البيت الأول شطران كلَّ منهما مستقل بمعنى من الحكمة فالإنسان كما يدين يُدان ، والله تعالى في كل مكان وهو لا يحدّه مكان ولا زمان (١) والدُّنيا فانية يعمُرها الإنسان قليلاً ويمضي سريعاً (٢ ـ ٣) ويقول : كيف أُسَرّ بمرور كل يوم وإنما هو يأخذ من رصيد عُمري ؟ (٤)] .

[من الكامل]

١ كُلُّ امرئٍ فيما يَدينُ يُدانُ ... سُبحانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ منهُ مكانُ

٢ يا عامِرَ الدُّنيا لِيَسْكُنَها وما ... هِيَ بالّتي يَبْقى بِها سُكّانُ

---

(١) يقال : دِنْتُ فلاناً بما صنع : أي جزيته .

ـ وفي المثل « كما تدين تُدان » ؛ وهو في أمثال العسكري ١٦٨/٢ ، وشرحه : أي كما تَفعَل يُفعل بك . والدِّينُ : الجزاء .

(٢) يختلف هذا الكلام عن قول أبي العتاهية :

لِدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصيرُ إلى يباب !

فكلامُ العَبّاسي فيه تيئيسٌ ونظرةٌ سَوداويّة ، وفي كلام الأندلسي : تحذير من الانغماس في الدُّنيا ولفتٌ رفيقٌ بعبارةٍ لطيفة .

٣ تَفْنَى، وتَبْقَى الأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْلَما يَبْقى الْمُناخُ وتَرْحَلُ الرُّكْبانُ

٤ أَأُسَرُّ في الدُّنيا بِكُلِّ زِيادَةٍ وزِيادَتي فيها هِيَ النُّقْصانُ !

---

(٣) الْمُناخ : مَبْرَكُ الإبل . والرُّكبان جمع راكب وهو الذي يعلو ظهر البعير وغيره وتقال في راكب أيّة وسيلة وتجمع على : ركّاب ورُكبان ورُكوب ورَكَبَة ورِكَبَة .

(٤) هذا الْمَعنى مُتَداول ، وأشهر من تناوله أبو الفَتح البستي في قصيدته المشهورة (ديوانه : ٣١٣) :

زيادةُ المرءِ في دُنياه نقصانُ وربْحُهُ غير محض الخير خسْرانُ !

[٣٩]

قال الإلبيري(☆) :

[يتوجه الخطاب في هذه الأبيات إلى الْمُستغرق في الدّنيا المشغول عن الآخرة الذي لا يحسب حساب اليوم الموعود : آخر ساعة من ساعات الحياة الدُّنيا ، وأوّل ساعة من زمن الآخرة : الموت (١ ـ ٢) .

فَسرعانَ ما يَفجأ الموت ذلك اللاّهي النّاسي المغتر بالدُّنيا فيبكيه أهله ساعة أو ساعات ويوارونه التّراب ثم يقتسمون ماأفنى حياته في جَمعه ! (٣ ـ ٥) .

ويدعو الإنسان إلى اليقظة والحذر وإلى أن يحسب حساب الموت ، والآخرة التي وراءه (٦ ـ ٧)] .

[من مخلّع البسيط]

١ كَمْ آمِنٍ للْمَنُونِ لاهٍ عَنِ الرَّدَى باتَ مُطْمَئِنّا

٢ صَبَّحَهُ وافِدُ الْمَنايا فَعايَنَ الْمَوْتَ حينَ عَنّا

(☆) استطرد الشريشي في شرح المقامات إلى ذكر المقابر وأورد نماذج من شعر الزُّهّاد والعُبّاد في ذلك وأورد شعر الإلبيري هذا ، وروى في شرحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « قال رسول الله ﷺ : أكْثِروا من ذِكر هادم اللذات . قالوا : وما هادم اللذات ؟ قال : الموت » قال الشَّريشِيّ : وقال الإلبيري في معنى ماتقدّم : الأبيات ....

(١) لَها عن الشيء : غفل عنه ، وترك ذِكره ، وأضرب عنه .

(٢) صَبّحه : أتاه مع الصَّباح .

وعاين الموت : رآه عِياناً (صار حقيقة ماثلة) .

و : عَنَّ الشيء يَعِنُّ : ظَهر أمامك واعْتَرض .

٣ حتّى إذا ماقضى بَكاهُ حَميمُهُ مُعْوِلاً مُرِنَّا

٤ وارَوْهُ في لَحْدِهِ وسَنُّوا عليه قيدَ التُّراب سَنَّا

٥ وانتهَبوا مالَهُ وشنُّوا الـ غاراتِ فيما حَواهُ شَنَّا

٦ لِمِثْلِ هذا فكُنْ مُعِدّاً ماقدْ أَعَدَّ الْهُداةُ مِنَّا

٧ وارْتقِبِ الْمَوتَ فهوَ حَتْمٌ يَخْتَرِمُ الطِّفْلَ والْمُسِنَّا

---

(٣) الحميم : الصّديق تودُّه ويوَدُّك .
الْمُعْوِل : اسم فاعل من أعْوَل : رفع صوته بالبُكاء والصياح .
الْمُرِنّ : اسم فاعل من أرنّت المرأة في نَوْحِها .

(٤) قيد التراب : كذا في مطبوع الشّريشي على الْمَقامات . وكأنه : هَيْل التراب ؛ والْهَيْل : ماانهار وانصبّ من الرمل وغيره .

(٥) شن الغارة عليها : بثَّها وفرّقها من كل وجه .

(٧) اخترمَتْه المنية : أخذتْه .

التَّخْرِيج والرّواية

[١]

- البيت الأول في الروض المعطار في خبر الأقطار : ٢٩
- الأبيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ في ألف باء للبلوي ٢٥/١
- الأبيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٣٥ على هذا الترتيب في ألف باء ٣/١

[٢]

في التخريج :

في شرح المقامات الحريرية للشريشي الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ غير معزوَة : وحلاّها بعبارة « وقال آخر » .

في الرواية :

١ : تلاحظني .
٢ : فيه طيٌ .
٥ : أزال .... يا صاحي .
٦ : وبدّلت التّكاسل .

[٤]

البيت الأول في الروض المعطار للحميري : ٣٠

[٥]

التخريج :

في إحدى نسخ نفح الطيب للمقري ٨٦/٤ أن الإلبيري « قال هذه القصيدة في علماء السوء » .

وقـد أورد المقري في النفـح ٨٦/٤ و ٣١٨/٤ الأبيـات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ وفي البيت ١٥ : ويذيله (بالذال المعجمة) .

- وفي أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من كتاب السفر للسلفي) ص ١٣٥ الأبيات : ١٤ ، ١٥ ، ٢٣

- وفي شرح مقامات الحريري للشريشي ٣٨٥/١ وردت الأبيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ وفيه (٧٦/٢) الأبيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠

الرواية :

رواية الشريشي :

٢٣ : قطف البلاد .... قد كان يعمرها

٢٩ : ولطالما كانوا .

[٨]

التخريج :

في نفح الطيب للمقري ٣١٨/٤ الأبيات ١ ومن ٣ - ١١

وفي شرح المقامات للشريشي ٢٧٤/٢ الأبيات ١٥ ، ١٦

الرواية :

رواية نفح الطيب :

٣ : وأخدع بالمنى .

٤ : مفلول الشبا .

٧ : أن يشتهي .

٨ : ضحك الجهول .

٩ : تنبهه .

[١٠]

التخريج :

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٨٢/١ الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

الرواية :

رواية الشريشي :

١ : وقد رم رحلي (بالراء المهملة) .

٥ : وكم وارد فيها .

[١١]

التخريج :

في الروض المعطار (٢٩) الأبيات ١ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥

وفي ١٥ : ويحك فتى .

الرواية :

في الأصل المخطوط : يبيع ما يفنى ؛ ولعل الصواب ماأثبت ، وقد أثبتها كذاك في المطبوع ولم ينبه إلى رواية الأصل المخطوط .

[١٢]

التخريج :

في نفح الطيب ٢٤٥/٤ ـ ٣٤٦ الأبيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧

الرواية :

رواية النفح :

٥ : وجلالة فبدالها .

٧ : لما انتهوا بجفونهم .

[١٣]

التخريج :

القصيدة في الإحاطة في أخبار غرناطة (٣١٧/٤ ـ ٣١٨) ومنها في الْمُغرب في حُلى الْمَغرب لابن سعيد (١٣٣/٢) الأبيات ١ ، ٤

وفي نفح الطيب (٤٩١/٣) الأبيات ١ ، ٤ أيضاً .

الروايات :

١ : في المغرب ، والنفح والإحاطة : تستجيد

٢ : في المغرب والإحاطة : ماذاكُم ؟

- في النفح : صواباً .

٤ : في الإحاطة : يبتغين كنّاً .

٥ : في الإحاطة : ليس لسكانه .

٧ : في الإحاطة : مالك عن .

[١٤]

التخريج :

أورد ابن سعيد في المغرب (١٣٣/٢) الأبيات ١ ، ٢ ، ٨ ، ٩

الرواية :

رواية المغرب :

١ : خوف الذّباب .

٢ : وعاقبتها بأشد العقاب

٨ : فكم وعدتني .

[٢٢]

التخريج :

- في الإحاطة الأبيات من ٢٧ إلى آخر القصيدة عدا البيت ٣١

- وفي صلة الصلة البيت ٢٧

[٢٤]

التخريج :

في شرح المقامات للشريشي ٢٠٤/٢

الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥

الرواية :

رواية الشريشي :

١ : وخطت بليلي ؛ تأهبي للرحيل .

٢ : فما للشيب .

٣ : أصابك طلها .

٥ : بنور الشيب .

وفيه أيضاً ١١٢/١ البيت العاشر ، ونصه فيه :

فــلازم قرع بــاب التــوب دأبــاً   فــإن لــزومــه سبب الــدخــول

[٢٥]

التخريج :

القصيدة في أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (١٣٢ ـ ٢٣٣) عدا الأبيات : ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٣

ـ ومنها في نفح الطيب الأبيات ١ ، ١٥ ، ٢ ، ٣ ، ٤ على التوالي المذكور .

ـ ومنها في المغرب في حلى المغرب (١٣٢/٢) الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

الروايات :

١ : في أعمال الأعلام ، والنفح ، والمغرب : بُدور الزمان .

٢ : زاد في أعمال الأعلام ـ وانفرد بهذه الزيادة ـ بعد البيت الأول :

مقــالــةَ ذي مقــةٍ مشفــقٍ   يعــدّ النّصيحــة زُلفى ودين

٣ : في المغرب والنفح : أَقَرَّ بها .

٤ : في أعمال الأعلام والنفح : من المؤمنين .

٥ : في المغرب : وَكانوا من الفترة الأرذلين .

٦ : في أعمال الأعلام : وقد جاز ذلك وما يشعرون .

٧ : في أعمال الأعلام : فكم مسلم فاضلٍ قانتٍ .

[٢٧]

التخريج :

الأبيات في التكملة لابن الأبار ١٣٦/١ ـ ١٣٧ وهي في النفح ١١٣/٤

الروايات :

في التكملة لابن الأبار :

٢ : بعيد عنهم .

قال ابن الأبار : ولو قال في البيت الثاني : « كأني عنهم غائب غير شاهد » لكان أبدع وأبرع في الصناعة الشعرية .

ـ وفي النفح :

٣ : علمي لهم .

ونقل المقّري في النفح نقد ابن الأبّار بعبارته .

[٣١]

التخريج :

أورد في الإحاطة (٥١٧/٣) البيتين الأوّلين .

الرواية :

في الإحاطة :

١ : من قول ومن قيل .

٢ : محرف ومصحف .

[٣٣]

التخريج :

القطعة في شرح مقامات الحريري للشريشي ٦٦/٢ في أثناء شرح المقامة السمرقندية وعند استطراد المؤلف لذكر ذهاب الأمم .

الرواية :

١ : في شرح المقامات : (دخروه) بالدال المهملة .

٢ : في شرح المقامات : (شوارب) بالراء المهملة .

٣ : في شرح المقامات : ليوت حقيبة .

[٣٤]

التخريج :

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٧٨/١

الرواية :

١ : في شرح المقامات : (غلّ) بدلاً من غال وأرجّح ماأثبت بقرينة المعنى ؛ (وانظر الشطر الثاني) .

- وفيه (العتيد) بالتاء المثناة وأرجح النون .

[٣٥]

التخريج :

في الإحاطة (مخطوطة برلين) نقلها دوزي وأوردها محقق المطبوع من الإلبيري .

[٣٦]

التخريج :

القطعة في شرح المقامات للشريشي ٣٠/٢ في أثناء شرح المقامة الكرجية ، عند استطراد الشارح إلى حديث الغنى والفقر .

- وفي نفح الطيب ٣١٨/٤

[٣٧]

التخريج :

في نفح الطيب للمقري ٣١٧/٤

[٣٨]

التخريج :

في نفح الطيب ٢١٧/٤

وشرح المقامات ٣٢١/١

الرواية :

٢ : في شرح المقامات (يبقى لها) .

[٣٩]

في شرح مقامات الحريري للشريشي ١٨٠/١ وفي شرحه للمقامة الساوية .

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ش)

(ص)

(ص)

(ع)

(ي)

(و)

فهرس القوافي

(قافية الهمزة)

(قافية الباء)

(قافية التاء)

(قافية الحاء)

(قافية الدال)

(قافية الراء)

(قافية الزاي)

(قافية الفاء)

(قافية الكاف)

(قافية اللام)

(قافية الميم)

(قافية النون)

(قافية الهاء)